غابرييل غارسيا ماركيز

عن الحب وشياطين أخرى

رواية



ترجمة: صالح علماني

عن الحب وشياطين أخرى

غابرييل غارسيا ماركيز

عن الحب وشياطين أخرى

رواية

ترجمة: صالح علماني

دار جفرا للدراسات والنشر
حمص ـ ص.ب ١٠١٧

الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ـ ١٢/١٩٩٤

تصميم الغلاف: ناصر جليلي

عن الحب وشياطين اخرى/ غابرييل غارسيا ماركيز: ترجمة صالح علماني.
ـ حمص: دار جفرا، ١٩٩٤ ـ . ٢٠٠ ص : ٢٠ سم
١ ـ ٨٦٣ كب غ ا ر ع . ٢ ـ العنوان. ٣ ـ غارسيا ماركيز. ٤ ـ علماني.
مكتبة الأسد

ع ـ ١٢٩٨/١٢/١٩٩٤

إلى كارمن بالثيلاس
مستحمة بالدموع

يبدو أن الشَّعر سيُبعث
أقل بكثير من أجزاء الجسد الأخرى

توماس دي اكينو

عن تكامل الأجساد المبعوثة

(المسألة ٨٠ ، الفصل ٥)

لم يكن يوم ٢٦ تشرين الأول ١٩٤٩ يوم أخبار مهمة. فالمعلم كليمنته مانويل زابالا، رئيس تحرير الصحيفـة التي كتبت فيهـا أولى كلماتي ككاتب تحقيقات، أنهى الاجتماع الصباحي بنصيحتين أو ثلاث نصائح روتينية. وبعد بضع دقائق، علم من خلال مكالمة هاتفية أنهم ينبشون قبور مقبرة دير سانتا كلارا القديم، فأمرني دون أن يعلق آمالاً:
«قم بجولة هناك لنرى ما الذي قد يخطر لك»..

كان دير الراهبات الكلاريات التاريخي الذي تحول إلى مستشفى منذ نحو قرن من الزمان، سيباع ليشيد مكانه فندق من خمس نجوم. كانت كنيســة الدير البديعة تكاد تكون مكشوفة للعراء بفعل انهيار سقفها التدريجي، أما في سراديبها فكانت ماتزال مدفونة بقايا ثلاثة أجيال من المطـارنة ورئيســات الدير وأناس آخرين من الأعيان. وكانت الخطوة الأولى هي إخلاء تلك الرفات وتسليمها لمن يطالبون بها، وإلقاء ما تبقى منها في الحفرة الجماعية.

لقد فاجأتني بدائيـة الأســلوب. فقد كان العمـال ينبشـون القبور بالمعاول والفؤوس، ويخرجون التوابيت المهترئة التي كانت تتفتت بمجرد

تحريكها، ثم يفصلون العظام عن خليط التراب ومزق الثياب وخصل الشعر الذاوي. وكلما كان الميت أعلى مقاماً يكون العمل أكثر مشقة، لأنه لابد عندئذ من كشط بقـايا الأجســاد ونـخل رفاتها بدقة بالغة لاستخراج الأحجار الكريمة والمصاغ الذهبي.

كان معلم الورشة ينسخ المعلومات المدونة على ألواح القبور الحجرية في دفتر مدرسي، ويرتب العظام في أكوام متفرقة، ويضع ورقة تحمل الاسم فوق كل كومة منها حتى لا يختلط بعضها ببعض. وهكذا، فقد كان أول ما رأيته عند دخولي إلى المعبد هو صف طويل من أكوام عظام استعادت الدفء تحت شمس تشرين الأول الفظة التي كانت تنفذ في دفقات من فجوات السقف، ودون أي تحقق من الشخصية سوى الاسم المكتوب بقلم الرصاص على قصاصة الورق. ومازلت، بعد مضي نحو نصف قرن من الزمـان، أشعر بالذهول الذي سببه لي ذاك الكشف الرهيب لآثار مرور السنوات المدمر.

كان هناك، بين آخرين كثيرين، والٍ على البيرو وعشيقته السرية؛ ودون توريبيو دي كاثيريس اي بيرتوديس مطران هذه الأبرشية؛ وعدة رئيسات للدير، بينهن الأم خوسيفا ميراندا؛ وحامل بكالوريوس الفنون دون كريستوبال دي ايراسو الذي كرَّس نصف حياته في صنع بطانة سقوف الدير المزخرفة. وكان هناك قبر مغلق على لوحته الحجرية اسم مركيز كاســالدويرو الثـاني، دون يغنـاثيو دي الفارو اي دوينياس، ولكنهم حين فتحوا القبر، ظهر أنه خاوٍ لم يستخدم. أما رفاة زوجته

المركيزة دونيا اولاليا دي مندوثا، فكانت تحت اللوح الذي يحمل اسمها في القبر المجاور. لم يولِ معلم الورشـة اهتماماً كبيراً للأمر: كان من الطبيعي أن يعدّ نبيل محلي قبره ثم يجري دفنه في قبر آخر.

في المحراب الثـالث للمذبح الكبـير، وإلى جهـة الانجيـل، هنـاك بالذات كان الخبر. لقد تطايرت اللوحة فتاتاً مع ضربة المعول الأولى، وانفلتت خارج القبر غديرة شعر حي له لون النحاس المركَّز. أراد معلم الورشـة أن يسحب ذلك الشعر كاملاً بمساعدة عماله، فكان كلما سحبوه يبدو أكثر طولاً وغزارة، إلى أن خرجت آخر فتائله وهي ماتزال عالقة بجمجمة طفلة. لم يبق في القبر سوى بضع عظام صغيرة ومتفرقة، وعلى اللوحة الحجرية المتآكلة بفعل ملح البارود لم يكن مقروءاً سوى اسم بلا كنية: **سييرفا ماريا دي تودوس لوس انخيلس**، بعد مدِّ ذلك الشعر الرائع على الأرض؛ تبين أن طوله اثنين وعشرين متراً وأحد عشر سنتمتراً.

أوضح لي معلم الورشة دون دهشة أن الشعر البشري ينمو سنتمتراً واحداً في الشهر حتى بعد الموت، وكان يبدو له أن اثنين وعشرين متراً هو طول وسطي مناسب لمئتي سنة. أما بالنسبة لي بالمقابل، فلم يبد الأمر تافهاً إلى ذلك الحد، لأن جدتي كانت قد روت لي في طفولتي أسطورة مركيزة في الثـانية عشرة من عمرها كان شعرها يتجرجر وراءها مثل أذيال فستان العروس، وأنها ماتت بداء الكَلَب بعد أن عضها كلب، وكانت تحظى بتوقير شعوب الكاريبي لمعجزاتها الكثيرة. إن فكرة احتمال

أن يكون ذاك القبر هو قبرها كانت خبري الصحفي في ذلك اليوم، ومنشأ هذا الكتاب.

غابرييل غارسيا ماركيز

كارتاخينا دي انديااس ١٩٩٤

واحد

كلب رمادي له غُرّة في جبهته اقتحم تعرجات السوق في يوم الأحد الأول من شهر كانون الأول، فقلب أكشاك الأطعمة المقلية وبسطات الهنود ومظلات اليانصيب، وعضّ في أثناء مروره أربعة أشخاص ظهروا في طريقه. ثلاثة منهم كانوا عبيداً من الزنوج. أما الرابعة فكانت سييرفا ماريا دي تودوس لوس انـخيلس، الإبنة الوحيدة لمركيز كاسالدويرو، التي كانت قد ذهبت مع خادمة خلاسية لشراء سلسلة جلاجل من أجل حفلة بلوغها الثانية عشرة من عمرها.

كانت قد تلقت تعـليمات بعدم تجاوز بوابة التجـار، لكن الخادمة غامرت حتى الجسر المتحرك في ضاحية جيتسيماني، تجتذبها ضجة ميناء النخاسة، حيث كانوا يبيعون شحنة من عبيد غينيا. كانت سفينة شركة غـاديتـانـا لشحن الزنوج تنتظر بذعر منذ نحو أسبوع بسبب وقوع حوادث وفاة لا تفسير لها على متنها. وفي محاولة لإخفاء الواقعة ألقوا بجثث العبيد إلى الماء دون تثقيل. لكن البحر أخرجها طافية وطلع عليها الصباح وهي على الشاطىء مشوهة بانتفاخات وبلون كبريتي غريب. رست السفينة خارج الخليج خوفاً من أن تكون مصدر وباء افريقي، وبقيت هناك إلى أن ثبت أن الوفيات هي بسبب تسمم بمأكولات فاسدة.

في الوقت الذي مرّ فيه الكلب في السوق، كان قد تم بيع الشحنة المتبقيـة على قيد الحيـاة، والتي انـخفضت قيمتهـا بسبب سوء حالتها الصحيـة. وكان النخاسون يحاولون تعويض خسـارتهم بقطعة واحدة تساوي كل القطع الأخرى. تلك القطعة هي سبية حبشية طول قامتها سبعـة أشبـار، مطلية بدبس قصب السكر بدلاً من الزيت التجاري المعهود، وذات جمال مُهيّج إلى حد يبدو أشبه بالكذب. كان لها أنف حاد، ورأس كثمرة القرع، وعينان ناعستان، وأسنان سليمة، وهيئة يمكن الاعتقاد بأنها هيئة مصارع روماني. لم يسموها في الحوش الكبير، ولم يعلنوا عن عمرها أو عن حالتها الصحية، وإنما عرضوها للبيع معتمدين على جمالها وحسب. وكان الثمن الذي دفعه الحاكم فيها، نقداً ودون مساومة، هو وزنها ذهباً.

لقد كان من الأحداث العادية أن تعض الكلاب الشـاردة الناس وهي تجري في أثر القطط أو أثنـاء صراعها مع النسور على جيفة في الشارع، لا سيما في أوقات الوفرة والازدحام، حين يمر أسطول الغاليونات في طريقه إلى مهرجان بورتوبيلو. وعضّ أربعة أو خمسة أشخاص في يوم واحد لم يكن بالأمر الذي يؤرق أحداً، خصوصاً إذا كان الجرح كذاك الذي أصـاب سييرفا ماريا، والذي لم يكد يظهر له أثر على كعبها الأيسر. ولهذا، لم تشعر الخادمة بالهلع، ووضعت هي نفسها للطفلة لبخة من الليمون والكبريت وغسلت لها لطخة الدم عن ذيل تنورتها، ولم يعد هناك من يفكر في أي شيء آخر سوى الاحتفال الصاخب بإكمالها اثنتي عشرة سنة.

بيرناردا كابريرا، أم الطفلة وزوجة المركيز دي كاسالدويرو التي بلا ألقاب، كانت قد تناولت فجر ذلك اليوم مُسْهِلاً دراماتيكياً: ست حبات من الانتيمون في كأس من السكر الوردي. لقد كانت مولدة باسلة مما كان يدعى ارستقراطية الكنتوار؛ جذابة، فاتنة، منغمسة في المجون، وشبقة بما يكفي لإرواء ثكنة بكاملها. ولكنها ذوت في الدنيا مع ذلك خلال سنوات قليلة لكثرة ما استخدمت العسل المخمر وأقراص الكاكاو. فقد انطفأت عيناها الغجريتان، واضمحل نبوغها، وصارت تتغوط دماً وتتقيأ الصفراء، وتحول جسد حورية البحر الذي كان لها إلى جسد متورم ونحاسي، مثل ميت مضى على موته ثلاثة أيام، وصارت تطلق فسوات مدوية وكريهة الرائحة ترعب حتى كلاب الحراسة. وكانت لا تكاد تخرج من مخدعها، وإذا ما فعلت ذلك فإنها تخرج عارية، أو وهي تضع شالاً حريرياً على كتفيها دون أي شيء آخر تحته، فتبدو أكثر عرياً مما لو كانت لا ترتدي شيئاً.

كانت قد تغوطت ست مرات حين رجعت الخادمة التي رافقت سييرفا ماريا، ولم تحدثها عن عضة الكلب. ولكنها روت لها بالمقابل فضيحة صفقة العبدة في المرفأ. فقالت بيرناردا: «يمكن لها أن تكون حبشية إذا كانت جميلة حقاً مثلما يقولون». ولكنها حتى ولو كانت ملكة سبأ، فإنها لم تصدق إمكانية أن يشتريها أحدهم بدفع وزنها ذهباً.

قالت: «لعلهم يعنون دفع الثمن بالبيزوات الذهبية»(*).

* الالتباس الذي تولد لديها سببه كلمة (Peso) التي تعني وزن، ولكنها في الوقت نفسه اسم العملة المتداولة أيضاً. (المترجم).

فأوضحوا لها: «لا، بل ذهب يساوي وزن الزنجية».

فقالت بيرناردا: «وزن أي زنجية طولها سبعة أشبار لا يقل عن مئة وعشرين ليبرة. وليس هناك امرأة سوداء أو بيضاء تساوي مئة وعشرين ليبرة ذهباً، اللهم إلا إذا كانت تتغوط جواهر».

لم يكن هناك من هو أكثر دهاء منها في تجارة الرقيق، وكانت تعرف أنه إذا كان الحاكم قد اشترى الحبشية فإنه لم يقدم على ذلك من أجل شيء سامٍ كالخدمة في مطبخه. وكانت ماتزال تتحدث في هذا الشأن حين سمعت أول أنغام النايات ومفرقعات الحفلة، ثم تلاها في الحال صخب كلاب الحراسـة المحبوسـة في الأقفاص، فخرجت إلى بيارة البرتقال لترى ما الذي يحدث.

كان دون يغناثيو دي الفاردو اي دوينياس، مركيز كاسالدويرو الثاني وسيد دارين، قد سمع كذلك صخب الموسيقى من أرجوحة قيلولته المعلقة ما بين أشجار برتقال البستان.

كان رجلاً جنائزي الهيئة، كئيباً وصلفاً، به شحوب كشحوب الزنبق بسبب فصد الدم الذي تحدثه فيه الخفافيش في أحلامه. وكان يستخدم في البيت جلابية بدوي وقلنسوة طليطلية تزيد من خذلان مظهره. وحين رأى زوجته تخرج مثلما أخرجها الرب إلى الدنيا، سألها مستبقاً:

«أية موسيقى هذه؟».

فقالت؛

«لست أدري. في أي يوم نحن؟».

لم يكن المركيز يعرف ذلك. ولابد أنه كان يشعر بقلق حقيقي حتى

وجَّه سؤاله إلى زوجته، ولابد كذلك من أنها كانت مرتاحة جداً من آلام الصفراء حتى ردت عليه دون سخرية. كان قد استوى في أرجوحة النوم جالساً حين تكررت أصوات المفرقعات. فهتف قائلاً:

«بحق السماء المقدسة، في أي يوم نحن!».

كان البيت مجاوراً لمستشفى ديفينا باستورا للمجذوبات. وكانت نزيلات المستشفى اللواتي استثارتهن الموسيقى والمفرقعات قد وقفن على الشرفة المطلة على بستان أشجار البرتقال، وكن يحيين كل انفجار بالتصفيق. سألهن المركيز صارخاً عن المكان الذي تدور فيه الحفلة، فأخرجنه من شكوكه. لقد كان اليوم السابع من كانون الأول، وهو يوم القديس امبروسيو المطران، أما الموسيقى والبارود فكانا يدويان في فناء العبيد الملحق ببيته على شرف سييرفا ماريا. ضرب المركيز جبهته براحة يده وقال:

«طبعاً، كم سنة أتمت من عمرها؟».

فقالت بيرناردا:

«اثنتا عشرة».

فقال وهو يعود إلى الاستلقاء في أرجوحة النوم:

«اثنتا عشرة سنة فقط؟ يا لها من حياة بطيئة!».

كان ذلك البيت فخر المدينة حتى أوائل القرن. ولكنه الآن خرب وكئيب، ويبدو كما لو أن أصحابه قد هجروه بسبب الفراغات الفسيحة فيه والأشياء الموضوعة في غير أماكنها. كانت القاعات ماتزال تحتفظ بأرضيتها المغطاة بمرمر شطرنجي وببعض الثريات التي يتدلى منها نسج

العناكب. أما الحجرات التي ماتزال حية فكانت باردة في كل الأوقات بسبب سماكة جدرانها الحجرية وإغلاقها لسنوات طويلة، وفوق ذلك كله بسبب رياحٍ كانون الأول التي تتسرب مصفرة من الشقوق. كل شيء كان مشبعاً برطوبة الإهمال والعتمة الجائرة. والشيء الوحيد الذي تبقى من مظـاهر الخيلاء الفخمة للمركيز الأول هو كلاب الحراسة الدرواسية الخمسة التي تحرس الليالي.

فنـاء العبيد الصـاخب الذي كانت تجري فيه الحفلة بعيد ميلاد سييرفا ماريا، كان مدينة أخرى داخل المدينة في زمن المركيز الأول. وقد بقي كذلك في زمن الوارث طول الوقت الذي استمـرته تجارة العبيد والرقيق الملتوية التي كانت بيرناردا تديرها بيدها اليسرى من معصرة قصب السكر في ماهاتيس. لكن ذلك الألق كله أصبح الآن في عداد الماضي. فقد كانت بيرناردا مستنفدة بفجورها الذي لا يرتوي، وصار الفناء يقتصر على براكتين من الخشب لهما سقف من السعف، بعد أن استُهلكت آخر أرصدة العظمة.

دومينغا دي ادفيينتو، وهي زنجية تماماً، حكمت البيت بقبضة حديدية حتى عشية موتها، وكانت صلة الوصل ما بين عالمي البيت وفناء العبيد. لقد كانت طويلة القامة وسوداء، ذات ذكاء متبصر، وهي التي تولت تربية سييرفا ماريا. لقد اعتنقت الكاثوليكية دون أن تتخلى عن ديانتها اليوربا، وكانت تمارس طقوس الديانتين معاً، دون ترتيب ولا انسجام. وقد كانت روحها في طمأنينة سليمة على حد قولها، لأن ما كان ينقصها في إحدى الديانتين تجده في الأخرى. وكانت الكائن البشري الوحيد

الذي يتمتع كذلك بسلطة التوسط بين المركيز وزوجته، وكلاهما كان يستجيب لها. وكانت هي وحدها التي تطرد بعصا المكنسة العبيد حين تجدهم يمارسون شرور اللواط أو الزنى مع نساء الآخرين في حجرات البيت الخاوية. ولكنهم منذ وفاتها بدؤوا يغادرون البراكتين هاربين من قيظ الظهيرة، ويستلقون على الأرض في أي ركن من أركان البيت وهم يكشطون بقايا قدور الأرز ليأكلوها، أو يلعبون لعبة الماكوكو والتارابيبا في برودة الممرات. في ذلك العالم الجائر الذي لم يكن فيه أحد حراً، كانت سييرفا ماريا حرة: هي وحدها وهناك فقط. ولهذا كانت الحفلة تقام هناك، في بيتها الحقيقي ومع أسرتها الحقيقية.

لم يكن بإمكانها أن تتصور وجود رقصة أكثر هدوءاً وسط كل تلك الموسيقى، ومع عبيدها وعبيد بعض البيوت الوجيهة الأخرى الذين كانوا يساهمون بما يقدرون عليه. وكانت الطفلة تُظهر نفسها على سجيتها. فهي ترقص بظرف ونشاط أكثر من الأفارقة أنفسهم، وتغني بأصوات مختلفة عن صوتها بمختلف اللغات الأفريقية، أو بأصوات الطيور والحيوانات، بطريقة تحير أصحاب تلك الأصوات أنفسهم. وبأمر من دومينغا دي ادفيينتو كانت أكثر العبدات شباباً يطلين وجهها بالسناج الأسود، ويعلقن في عنقها أطواق قداسة فوق عوذة المعمودية ويعتنين بشعرها الذي لم يُقص مطلقاً والذي يمكن له أن يضايقها عند المشي لولا تضفيرهن له في جدائل كثيرة اللفات كل يوم.

لقد بدأت تتفتح في ملتقى قوى متناقضة. فقد كانت فيها ملامح قليلة جداً من أمها. أما من أبيها بالمقابل، فقد أخذت الجسد الضامر،

والخجل الأبدي، والبشرة الضاربة إلى الزرقة، وزرقة العينين المكفهرة، وبخاسية الشعر المشع النقية. وكان أسلوبها في الحياة متكتماً جداً حتى لتبدو وكأنها مخلوقة غير مرئية. وكان ذعر أمها من حالها تلك يضاهي استغرابها، ولهذا السبب علقت لها جلجلاً في معصمها كي لا تفقد اتجاهها في عتمة البيت.

بعد يومين من الحفلة، وبما يشبه السهو تقريباً، روت الخادمة لبيرناردا ان كلباً كان قد عض سييرفا ماريا، ففكرت بيرناردا بالأمر بينما هي تستحم بماء ساخن وصابون معطر للمرة السادسة قبل أن تنام، ولكنها حين رجعت إلى مخدعها كانت قد نسيته. ولم تعد إلى تذكره إلا في الليلة التالية لأن كلاب الحراسة بقيت تنبح دون سبب حتى الفجر، فخشيت أن تكون الكلاب قد أصيبت بالكَلَب. عندئذ، ذهبت إلى براكتي الفناء وهي تحمل شمعداناً، ووجدت سييرفا ماريا نائمة في أرجوحة نوم من السعف ورثتها عن دومينغا دي ادفيينتو، ولأن الخادمة لم تكن قد أخبرتها عن موقع العضة، فقد رفعت تنورة ابنتها وراحت تفحصها شبراً شبراً، متابعة ضوء ضفيرة النذر الملتفة حول جسدها مثل ذيل أسد. وأخيراً وجدت العضة: جرح في الرسغ الأيسر، وقد تشكلت عليه قشرة من الدم الجاف، وخدوش لا تكاد تكون ظاهرة في العقب.

لم تكن حالات الإصابة بداء الكَلَب قليلة ولا تافهة في تاريخ المدينة. وقد كان أكثرها دويّاً حادثة بهلوان متجول كان يجوب الدروب مع قرد لاتختلف حركاته عن حركات الإنسان. وقد أصيب القرد بعدوى داء الكلب في أثناء الحصار البحري الانكليزي، فعض صاحبه في

وجهه وهرب إلى الجبال المجاورة. وقد قتلوا البهلوان عاثر الحظ بضربة هراوة حين صار يعاني هذيانات رهيبة واصلت الأمهات غناءها لسنوات طويلة تالية في أغنيات شارعية لإخافة الأطفال. وقبل انقضاء أسبوعين على ذلك، نزلت شرذمة من القرود الشيطـانية من الجبال في وضح النهار، وألحقت أضراراً بحظائر الخنازير والدجاج، وداهمت الكتدرائية وهي تنبح وتختنق بزبد دمويفي الوقت الذي كانت تقام فيه شعائر قداس انتصاري بمناسبة هزيمة الأسطول الانكليزي. ولكن أكثر المآسي فظاعة لم تنتقل مع ذلك إلى صفحات التاريخ، لأنها كانت تحدث بين السكان الزنوج الذين كانوا يخفون المصابين لمعالجتهم بوسائل السحر الإفريقية في معاقل العبيد الهاربين.

وعلى الرغم من كل تلك العبر، لم يكن البيض أو الزنوج أو الهنود يفكرون بداء الكلب ولا بأي مرض آخر من أمراض الحضانة البطيئة، مالم تظهر أول الأعراض التي يصبح الشفـاء بعدها غير ممكن. وقد تصرفت بيرناردا بالرؤية نفسهـا. فقد كانت تفكر بأن خرافاتالعبيد تمضي أسرع وأبعد مدىمن خرافات المسيحيين، وأنه يمكن حتى لعضة كلب عادية أن تلوث شـرف الأسـرة. وكانت واثقة من صواب آرائها لدرجة أنها لم تذكر شيئاً عن المسألة لزوجها، ولم تعد إلى تذكرها حتى يوم الأحد التـالي، حين ذهبت الخادمة بمفردها إلى السوق ورأت جثة كلب معلقة بشجرة لوز لكي يعرف الناس أنه قد مات بداء الكَلَب. وكانت نظرة واحدة منها كافية لأن تتعرف، من الغرة في الجبهة ومن الشعر الرمادي، على الكلب الذي عض سييرفا ماريا. ولكن بيرناردا لم

تبد قلقاً حين أخبرتها الخادمة بذلك. لم يكن ثمة مبرر للقلق: فالجرح قد جف ولم يبق أي أثر للخدوش.

كان شهر كانون الأول قد بدأ بداية سيئة، ولكنه ما لبث أن استرد أمسياته الجمشتية ولياليه ذات الرياح المجنونة. وكان عيد الميلاد أكثر بهجة من السنوات الأخرى بسبب الأخبار الطيبة القادمة من إسبانيا. ولكن المدينة لم تعد كما كانت في السابق. فسوق النخاسة الرئيسي كان قد انتقل إلى هافانا، وصار أصحاب المناجم والمزارع في هذه الأنحاء من الأرض اليابسة يفضلون شراء الأيدي العاملة بالتهريب وبأسعار أرخص في جزر الانتيل الانكليزية. وهكذا كانت المدينة قد صارت مدينتين: إحداهما مرحة ومزدحمة طوال ستة الشهور التي تمضيها سفن الغاليون في الميناء، والأخرى خامدة في بقية شهور السنة، بانتظار عودة السفن.

لم يعد يُعرف أي شيء عمن عضهم الكلب حتى أوائل شهر كانون الثاني، حين ظهرت هندية مشّاءة معروفة باسم ساغونتا وطرقت باب المركيز في ساعة قيلولته المقدسة. كانت هرمة جداً، تمشي حافية تحت عين الشمس وهي تحمل عكازاً طويلاً وتتسربل من رأسها حتى قدميها بملاءة بيضاء. وكانت لها سمعة سيئة لأنها تمارس ترقيع أغشية البكارة وعمليات الإجهاض، ولكنهم كانوا يكافئونها جيداً مع ذلك لمعرفتها أسرار الهنود في جعل شخص يائس من الشفاء ينهض واقفاً.

استقبلها المركيز على مضض وهو واقف في الدهليز، وتأخر في فهم ما تريده منه، فقد كانت امرأة رصينة الكلام وتتحدث بمواربة معقدة. وقد تكلمت بكثير من اللف والدوران لكي تصل إلى المسألة، مما أفقد المركيز صبره. فقال لها:

«أياً كان الأمر، أخبريني به دون مزيد من اللاتينيات».

قالت ساغونتا:

«إننا مهددون بجائحة داء الكَلَب، وأنا الوحيدة التي تملك مفاتيح سان هوبيرتو، راعي الصيادين ومداوي المكلوبين».

فقال المركيز:

«لست أرى سبباً للوباء. فليست هناك إشارات إلى مذنبات أو كسوف على حد علمي، وليست لدينا خطايا كبيرة إلى الحد الذي يجعل الرب يهتم بنا».

فأخبرته ساغونتا بأن كسوفاً كاملاً للشمس سيحدث في آذار، وقدمت له معلومات كاملة عمن عضهم الكلب في يوم الأحد الأول من شهر كانون الأول. فقد اختفى اثنان منهم، ولا ريب في أن ذويهم قد أخفوهم ليحاولوا التعزيم عليهم بالسحر، والثالث توفي بداء الكَلَب في الأسبوع الثاني. وهناك شخص رابع لم يصب بعضة، وإنما ناله قليل من لعاب الكلب نفسه، وهو يحتضر الآن في مستشفى «محبة الرب». وقد أمر نقيب مأموري القضاء بتسميم نحو مئة كلب متشرد فيما مضى من الشهر. ولن يبقى خلال أسبوع آخر كلب واحد حي في الشوارع.

قال المركيز:

«لست أدري على أي حال ما هي علاقتي بكل هذا، ولا سيما في مثل هذا الوقت غير المناسب».

قالت ساغونتا:

«لقد كانت ابنتك هي أول من عضهم الكلب».

فقال المركيز بقناعة راسخة:

«لو أن ذلك حدث حقاً لكنت أول من علم بالأمر».

كان يعتقد أن الطفلة في صحة جيدة، ولم يبدُ له ممكناً حدوث أمر خطير كهذا دون أن يعلم به. وهكذا، اعتبر الزيارة منتهية ومضى لإكمال قيلولته.

مع ذلك، بحث في ذلك المساء عن سييرفا ماريا في أفنية الخدم. وجدها تساعد العبيد في سلخ أرانب ووجهها مطلي باللون الأسود، وكانت حافية القدمين وتضع على رأسها عمامة ملونة كالتي تضعها الزنجيات. سألها إذا ما كان كلب قد عضها حقاً، فردت عليه بالنفي دون أدنى مجال للشك. ولكن بيرناردا أكدت حدوث ذلك في تلك الليلة نفسها. فاحتار المركيز، وسألها:

«ولماذا أنكرت سييرفا ماريا الأمر؟».

فقالت برناردا:

«لأنه لا توجد طريقة لجعلها تقول الحقيقة حتى ولو بطريق الخطأ».

قال المركيز:

«لابد من التصرف إذن، لأن الكلب كان مصاباً بداء الكَلَب».

«بالعكس» قالت برناردا «لابد أن الكلب قد مات لأنه عضها. لقد

حدث ذلك في كانون الأول، وماتزال عديمة الحياء متفتحة مثل زهرة».

واصلا الاهتمام بالاشاعات المتزايدة حول خطورة الوباء، بل وكان عليهما، رغم عدم رغبتهما، أن يتبادلا الأحاديث مرة أخرى حول شؤون مشتركة بينهما مثلما كانا يفعلان في الأزمنة التي كانت فيها الكراهية فيما بينهما أقل. كان الأمر واضحاً بالنسبة إليه. فقد كان يعتقد دائماً بأنه يحب ابنتــه، ولكن الخوف من داء الكَـلَب اضطره إلى الاعتراف في دخيـلته بأنه يخدع نفسـه من أجل الراحة. أما بيرناردا بالمقابل، فلم تكلف نفسها مجرد التساؤل في هذا الشأن، فقد كانت واعية تماماً بأنها لا تحب ابنتها وأنها ليست محبوبة من جانب ابنتها كذلك، وكان الأمران يبدوان لها عادلين. لقد كان قدراً كبيراً من الكراهية التي يشعران بها تجاه الطفلة مبعثه ما لدى الصغيرة من ملامح من كل منهما. ومع ذلك، كانت بيرناردا مستعدة للقيام بمهزلة ذرف الدموع وممارسة حداد الأم المفجوعة للحفـاظ على شـرفها، شريطة أن يكون سبب موت الطفلة محترماً.

وقـالت محددة: «ليس مهمـــاً سبب موتهـا، طالما أنه ليس مرض الكلاب».

وقد أدرك المركيز في تلك اللحظة، كما في وميض سماوي، ما هو مغزى حياته. فقال بحزم:

«الصغيرة لن تموت. ولكن، إذا كان لابد لها من أن تموت، فسيكون السبب هو ما يقدره الرب».

ذهب في يوم الثـلاثاء إلى مستشفى «محبة الرب» على رابيـة سـان

لاثارو، لكي يرى مريض الكَلَب الذي حدثته عنه ساغونتا. لم ينتبه إلى أن عربته الفخمة المغلقة بحرير الكريب الجنائزي ستبدو كعارض آخر من أعراض النكبات التي كانت تكتنفه، فمنذ سنوات طويلة لم يعد يخرج من بيته إلا في المناسبات الكبرى، ولم تكن هناك منذ سنوات طويلة أخرى مناسبات أكبر من المناسبات المشؤومة.

كانت المدينة غارقة في خمودها الموروث منذ قرون، إلا أنه لم ينعدم من يلمح الوجه الشاحب والعينين الشاردتين للسيد النبيل المرتبك، بملابسه المأتمية المصنوعة من حرير التفتا، والذي غادرت عربته المدينة المسوَّرة وتوجهت عبر الريف نحو ربوة سان لاثارو. وفي المستشفى، رآه المجذومون المطروحون على آجرّ الأرضية وهو يدخل بخطواته الواسعة مثل ميت، فقطعوا عليه الطريق ليطلبوا منه صدقة. وفي عنبر المرضى الهائجين، وجد مريض الكَلَب مقيداً إلى عمود.

كان خلاسياً مسناً مشعث الرأس واللحية. كان نصف جسده قد أصيب بالشلل، ولكن الداء بثَّ في نصفه الآخر قوة هائلة مما اضطرهم إلى تقييده حتى لا يمزق جسده بضربه بالجدران. ولم تترك روايته أي شك في أن الكلب هو ذاك الرمادي ذو الغرة البيضاء نفسه الذي عض سييرفا ماريا. وأنه قد لطَّخه بلعابه فعلاً، ولكن ليس في مكان سليم من بشرته وإنما على قرحة مزمنة في ربلة ساقه. لم يكن هذا التحديد كافياً لطمأنة المركيز الذي غادر المستشفى مروعاً من رؤية المحتضر، وفاقداً أي بصيص من الأمل في خلاص سييرفا ماريا.

وفي طريق عودته إلى المدينة على حافة الرابية، وجد رجلاً مهيب

الهيئة يجلس على حجر في الطريق إلى جوار حصانه الميت. أوقف المركيز العربة، وحين نهض الرجل واقفاً فقط، تعرف المركيز فيه على المجاز ابرينونثيو دي سابيريرا كاو، أشهر أطباء المدينة وأكثرهم إثارة للجدال. كان يشبه ملك السباتي تماماً. وكان يعتمر قبعة عريضة الحواف للحماية من الشمس، وينتعل جزمة خيّال، ويضع عباءة المثقفين الفاسقين السوداء. حيا المركيز باحتفالية غير عادية قائلاً:

«Benedictus qui venit in nomine veritatis».

لم يتحمل حصانه نزول المنحدر الذي كان قد صعده خبباً، فانفجر قلبه. وقد أراد نيبتون، حوذي المركيز، أن يفك السرج، ولكن صاحب الحصان ثناه عن المحاولة قائلاً له:

«ولماذا أريد السرج إذا لم يكن لدي ما أسرجه عليه. دعه يتعفن معه».

وكان على الحوذي أن يساعده في الصعود إلى العربة بسبب ضخامة جسده، ومنحه المركيز امتياز الجلوس إلى يمينه. كان ابرينونثيو يفكر بالحصان، فتنهد قائلاً:

«أشعر وكأن نصف جسدي قد مات».

فقال المركيز:

«ليس هناك أمر يسهل حله مثل موت حصان».

فتحمس ابرينونثيو وقال:

«لقد كان هذا الحصان مختلفاً. ولو كانت لدي الوسائل لكنت دفنته في مقبرة». ثم تطلع إلى المركيز ليرى ردة فعله، وأضاف:

«لقد أكمل مئة سنة في شهر تشرين الأول».

فقال المركيز:

«لا وجود لحصان يعيش كل هذه السنوات».

قال الطبيب:

«يمكنني إثبات ذلك».

كان يعمل في أيام الثلاثاء في مستشفى «محبة الرب» لمساعدة المجذومين المصابين بأمراض أخرى. لقد كان تلميذاً نجيباً للمجاز خوان مينديث نييتو، وهو يهودي برتغالي آخر هاجر إلى الكاريبي بسبب ملاحقته في إسبانيا، وكان قد ورث عنه سمعته السيئة في ممارسة السحر الأسود والبذاءة، ولكن أحداً لم يكن يشك في علومه. فخلافاته مع الأطباء الآخرين الذين لم يكونوا يغفرون له تشخيصاته الصائبة التي لا تصدق وأساليبه الفريدة، كانت دائمة ودامية. كان قد اخترع قرص دواء يؤخذ مرة واحدة في السنة لضبط الحالة الصحية وإطالة العمر، ولكن تلك الأقراص كانت تسبب اضطراباً ذهنياً شديداً في الأيام الثلاثة الأولى لدرجة أنه لم يكن هناك من يتجرأ على تناولها سواه. وقد اعتاد في أزمنة أخرى أن يعزف على القيثارة إلى جوار أسِرَّة المرضى ليُسَكِّنَ آلامهم بأنغام موسيقية موضوعة لهذا الغرض بالذات. ولم يكن يمارس الجراحة التي اعتبرها على الدوام فناً منحطاً يمارسه الأدعياء والحلاقون، وكان اختصاصه المرعب هو إخبار المرضى مسبقاً بيوم وساعة موتهم. ومع ذلك، فقد كانت شهرته الطبية وصيته السيء على السواء يستندان إلى

الأمر نفسه: فقد كان يقال أنه بعث إلى الحياة شخصاً ميتاً، وهو أمر لم ينفِهِ أحد على الاطلاق.

وبالرغم من تجاربه، كان ابرينونثيو متأثراً بسبب المصاب بالكَلَب. وقد قال: «الجسد البشري ليس مصنوعاً من أجل السنوات التي يمكن للإنسان أن يحياها». لم يضيع المركيز كلمة واحدة من محاضرته الدقيقة وجيدة الوصف، ولم يتكلم إلا عندما لم يعد لدى الطبيب ما يقوله.

سأله: «وما الذي يمكن عمله لهذا الرجل البائس؟».

فقال ابرينونثيو:

«قتله».

تطلع إليه المركيز مذعوراً. لكن الطبيب واصل كلامه دون تأثر: «هذا هو على الأقل ما كنا سنفعله لو أننا كنا مسيحيين طيبين. ولا تستغرب يا سيدي: هنالك مسيحيون طيبون أكثر مما يظنه أحدنا».

وكان يشير في الواقع إلى المسيحيين الفقراء من أي لون، في الأرباض والأرياف، ممن يملكون الجرأة على دس السم في طعام من يُصاب بداء الكَلَب من ذويهم لكي يجنبوه أهوال الاحتضار. ففي أواخر القرن السابق تناولت أسرة بكاملها حساء مسموماً لأن أياً من أفرادها لم يطاوعه قلبه على تسميم طفل في الخامسة من عمره بمفرده.

وأنهى ابرينونثيو قائلاً: «يفترض أننا نحن الأطباء لا نعلم بحدوث هذه الأمور. والواقع ليس كذلك، ولكننا نفتقر إلى السلطة الأخلاقية لتأييدها. وما نفعله بالمحتضرين في المقابل، هو ما رأيته حضرتك للتو؟

إننا نعهد بهم إلى القديس هوبيرتو، ونقيدهم إلى عمود لكي يحتضروا في أسوأ حال ولأطول وقت».

سأله المركيز:

«ألا توجد وسيلة أخرى؟».

فقال الطبيب: «بعد عضة الكلب الأولى، لا تعود هناك وسيلة مجدية». ثم تحدث عن مقالات متفائلة تعتبر داء الكَلَب مرضاً قابلاً للشفاء بالاستناد إلى تركيب معادلات متعددة: الطحالب الأرضية، الزِنجفر، المسك، الزئبق الفضي، الانجليس فلوري بوربوريو. وقال: «ترهات. كل ما في الأمر هو أن البعض يصابون بداء الكَلَب وآخرين لا يصابون به، ومن السهل القول إن الدواء هو السبب في عدم إصابة من لم يصابوا». بحث عن عيني المركيز ليتأكد من أنه مستيقظ ويتابع ما يقوله، ثم قال:

«ولماذا تبدي كل هذا الاهتمام؟».

فكذب المركيز:

«بدافع الشفقة».

نظر من النافذة إلى البحر الراكد من ضجر الساعة الرابعة، وانتبه وقلبه مثقل إلى أن طيور السنونو قد عادت. لم تكن الريح قد هبت بعد. وكانت جماعة من الصبية تحاول اصطياد بجعة ضالة على شاطىء موحل، ولاحقها المركيز في طيرانها الهارب إلى أن اختفت بين القباب البراقة في المدينة المحصنة.

دخلت العربة عبر السور من بوابة أراضي ميديا لونا، وقاد ابرينونثيو

الحوذي حتى بيته عبر ربض الحرفيين الصاخب، لم يكن الأمر سهلاً. فقد كان نيبتون قد تجاوز السبعين من عمره، فضلاً عن كونه متردداً وحسير البصر، وكان معتاداً على سير الحصان بمفرده في الشوارع التي يعرفها خيراً منه. وعندما وصلوا أخيراً إلى البيت، أطلق ابرينونثيو وهو عند الباب عبارة وداع اقتبسها من هوراسيو.

فاعتذر المركيز:

«لا أعرف اللاتينية».

فقال ابرينونثيو:

«لا حاجة بك إلى ذلك!» وقد قالها باللغة اللاتينية بالطبع.

لقد بلغ تأثر المركيز حداً جعله يقدم فور وصوله إلى البيت على أغرب عمل في حياته. فقد أمر نيبتون بحمل الحصان الميت من رابية سان لاثارو ودفنه في مقبرة، وأن يرسل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي أفضل حصان في اسطبله إلى ابرينونثيو.

بعد الراحة سريعة الزوال التي أحدثتها مسهلات الأنتيمون، أخذت بيرناردا تستخدم الحقن الشرجية بمعدل ثلاث مرات يومياً لكي تخمد حريق أحشائها، أو تغطس في حمامات ساخنة مع صابون مطيب بمعدل ست مرات لكي تلين أعصابها. لم يكن قد بقي لديها آنذاك أي شيء مما كانت عليه عند زواجها، حين كانت تتصور مغامرات تجارية بتكهن يقيني، وقد حققت إنجازات كبيرة جداً، حتى ذلك المساء المشؤوم الذي

تعرفت فيه على يهوذا الاسخريوطي وحلت بها النكبة.

لقد التقت به صدفة في حوش مهرجان شعبي حيث كان يصارع ثور مصارعة بيدين عزلاوين وهو شبه عارٍ ودون أي حماية. لقد كان جميلاً وجسوراً إلى حد لم تستطع معه نسيانه. ثم رأته ثانية بعد عدة أيام في حفلة رقص شعبية كرنفالية كانت تحضرها متنكرة بزي متسولة وهي تضع قناعاً على وجهها، وتحيط بها مملوكاتها وهن يرتدين ملابس المركيزات مع قلائد وأساور وأقراط من ذهب وأحجار كريمة. وكان يهوذا وسط دائرة من الفضوليين يراقص أي امرأة تدفع له، وكان لابد من فرض النظام لتهدئة لهفة الراغبات في الرقص، سألته بيرناردا عن الثمن. فرد عليها يهوذا وهو يرقص:

«نصف ريال».

فنزعت بيرناردا القناع عن وجهها وقالت له:

«أسألك عن ثمن حياتك».

وانتبه يهوذا إلى أنها بوجهها غير المقنَّع ليست متسولة جداً كما كانت تبدو بالقناع. فترك من كانت تراقصه، ودنا منها وهو يمشي بخيلاء صبي نوتي لكي يذكر لها الثمن.

قال:

«خمسمئة بيزو ذهباً».

فرازته بعين مثمنة خبيرة. كان هائلاً، له بشرة كجلد الفقمة، وجذع مموج، وعجز ضيق وساقان طويلتان، وله يدان هادئتان لا تشيان بمهنته. فقدرت بيرناردا:

«طول قامتك ثمانية أشبار».

فقال هو:

«وثلاث بوصات».

جعلته بيرناردا يخفض رأسه إلى مستواها لكي تفحص أسنانه، فهيجتها رائحة النشادر المنبعثة من إبطيه، كانت الأسنان تامة وسليمة وحسنة التنضيد.

قالت بيرناردا:

«لابد أن سيدك مجنون إذا كان يظن أن هناك من سيشتريك بثمن حصان».

فرد عليها:

«إنني حر وأبيع نفسي بنفسي» ثم ختم بنبرة ذات مغزى: «أيتها السيدة».

فقالت: «المركيزة».

فقدم لها حركة احترام مهذبة تركتها دون أنفاس، واشترته بنصف الثمن الذي طلبه. «من أجل متعة النظر فقط»، كما قالت هي. ولكنها بالمقابل احترمت وضعه كحر والوقت الذي يحتاجه لمواصلة العمل مع ثور السيرك الذي يملكه. جعلت إقامته في غرفة قريبة من مخدعها كانت للسائس فيما مضى، وانتظرته منذ الليلة الأولى، عارية وباب حجرتها مفتوح، واثقة من أنه سيأتي دون أن تدعوه. ولكن، كان عليها أن تنتظر أسبوعين دون أن تنام بسلام بسبب احتدام الجسد.

والواقع أنه ما إن عرف من تكون ورأى البيت من الداخل، حتى

استعاد إحساسه كعبد وأدرك المسافة الفاصلة بينهما. ومع ذلك، حين تخلت بيرناردا عن انتظاره ونامت وهي ترتدي قميص نوم، وأغلقت مزلاج الباب، دخل إليها من النافذة. أيقظها هواء الغرفة العابق برائحته النشادرية. أحست بأنفاس مسخ مينوتور يبحث عنها باللمس في الظلام، وبلهيب الجسد فوقها، وبيدي الاغتصاب اللتين أمسكتا بقميص نومها من عنقه وشقتاه على طوله بينما كان يشخر في مسمعها «قحبة، قحبة». ومنذ تلك الليلة أدركت بيرناردا أنها لم تعد تريد عمل أي شيء آخر طول حياتها.

جُنَّتْ به، صارا يذهبان إلى حفلات الرقص في الأرباض، هو بملابس السادة من سترة طويلة وقبعة مستديرة مما كانت بيرناردا تشتريه له حسب ذوقها، وهي متنكرة بأي شكل في أول الأمر، ثم بوجهها الحقيقي فيما بعد. غمرته بالذهب من سلاسل وخواتم وأساور، ورصّعت أسنانه بالألماس. وظنت أنها ستموت حين تنبهت إلى أنه يضاجع كل من يجدهن في طريقه، ولكنها قنعت آخر الأمر بالفضلات ووجدتها كافية. حدث في ذلك الحين أن دخلت دومينغا دي ادفيينتو إلى مخدعها في ساعة القيلولة، معتقدة بأن بيرناردا في معصرة قصب السكر، ففاجأتهما عاريين يمارسان الحب على الأرض. فوقفت العبدة مبهورة أكثر منها مذهولة ويدها على قبضة الباب.

فصرخت بها بيرناردا:

«لا تبقي واقفة مثل ميتة. إما أن تنصرفي، وإما أن تتمرغي هنا معنا».

انصرفت دومينغا دي ادفيينتو صافقة الباب بقوة دوت في مسامع

بيرناردا مثل صفعة. فاستدعتها في تلك الليلة وتوعدتها بعقاب فظيع إن هي تكلمت أي شيء عما رأته. فقالت لها العبدة: «لا تقلقي أيتها البيضاء. أنت تستطيعين منعي مثلما تشائين، وأنا عليّ تنفيذ ما تأمرين به». ثم انتهت قائلة:

«السيء في الأمر هو أنك لا تستطيعين منعي من التفكير بما أفكر فيه».

ولو أن المركيز علم بذلك لتظاهر بجهله له. فقد كانت سيرفا ماريا في نهاية المطاف، هي الشيء الوحيد الذي بقي مشتركاً بينه وبين زوجته، ولم يكن ينظر إليها كابنة له وإنما على أنها ابنتها هي وحدها. أما بيرناردا من جهتها، فلم تكن تفكر حتى بذلك. فقد أهملت الطفلة تماماً لدرجة أنها عند عودتها من إحدى زياراتها الطويلة لمعصرة قصب السكر، أخطأت في ابنتها وظنتها أخرى لكثرة ما كبرت وتغيرت. استدعتها، وتفحصتها، وسألتها عن حياتها، ولكنها لم تحصل منها على كلمة واحدة، فقالت لها:

«إنك صورة طبق الأصل عن أبيك: مسخ».

كانت تلك ماتزال هي الحالة المعنوية لكليهما في اليوم الذي عاد فيه المركيز من مستشفى «محبة الرب» وأطلع بيرناردا على تصميمه على إمساك زمام الأمور في البيت بيد حازمة. كان في تعجله شيء من العته جعل بيرناردا غير قادرة على الرد.

كان أول ما فعله هو أن أعاد إلى الطفلة حجرة نوم جدتها المركيزة، والتي كانت بيرناردا قد أخرجتها منها لتنام مع العبيد. كان بهاء القِدم ما يزال سالماً تحت الغبار: السرير الامبراطوري الذي كان الخدم يظنونه من الذهب لشدة بريق نحاسه؛ وكلّة العروس الرقيقة الشفافة، والأثواب المطرزة الفاخرة، وحوض الغسل المنحوت من المرمر المعرق، والعدد الكبير من قوارير العطور والمراهم المصفوفة في ترتيب عسكري فوق خوان الزينة؛ والمرحاض المتنقل والمبصقة وإناء التقيؤ المصنوعة من الخزف، العالم الوهمي الذي تخيلته العجوز المقعدة من الروماتيزم لابنتها التي لم تنجبها وحفيدتها التي لم ترها على الاطلاق.

بينما كانت الخادمات الزنجيات يبعثن الحياة في المخدع، تولى المركيز فرض قانونه في البيت. فأفزع العبيد الغافين في ظلال الأروقة المقنطرة، وهدد بجلد وحبس كل الذين يعودون إلى قضاء حاجاتهم في الزوايا أو يلعبون ألعاب الحظ في الحجرات المغلقة. لم تكن بالتدابير الجديدة. وقد كانت تنفذ بصرامة أكبر بكثير حين كانت بيرناردا تتولى زمام القيادة ودومينغا دي ادفيينتو تشرف على فرض التنفيذ، في حين كان المركيز يتلذذ أمام الملأ بعبارته التاريخية: «في بيتي يجري كل ما أنصاع له». ولكن، عندما سقطت بيرناردا في رمال الكاكاو المتحركة، وقضت دومينغا دي ادفيينتو نحبها، عاد العبيد إلى التسلل داخل البيت بتكتم شديد، ففي أول الأمر دخلت النساء مع صغارهن للمساعدة في أعمال تافهة، ثم تلاهم بعد ذلك الرجال البطّالون بحثاً عن برودة الممرات. أما بيرناردا التي أرعبها شبح الإفلاس، فكانت تطردهم ليكسبوا طعامهم

من التسـول في الطرقات. وقد صممت في إحدى نوباتها أن تعتقهـم جميعـاً، باستثناء ثلاثة أو أربعة عبيد يقومون بأعمال الخدمة المنزلية، ولكن المركيز اعترض بتعسف ودون تعقل:

«إذا كان لابد لهم من الموت جوعاً، فمن الأفضل أن يموتوا هنا وليس في تلك المجاهل».

لم يلجأ إلى صيغ سهلة عندما عض الكلب سيرفا ماريا. فقد عهد بالسلطة إلى العبد الذي بدا له أكثر تسلطاً وأجدر بالثقة، وأصدر إليه تعليمات أثارت بقسوتها استنكار بيرناردا نفسها. وفي الليلة الأولى، حين عاد النظام إلى البيت لأول مرة منذ موت دومينغا دي ادفيينتو، وجد سيـرفا ماريا في براكة العبدات، بين ست فتيـات زنجيـات ينمن في أراجيح نوم متقاطعة على مستويات مختلفة. أيقظهن جميعاً ليطلعهن على أنظمة الإدارة الجديدة. وقال لهن:

«الصغيرة ستعيش منذ اليوم في البيت. وليعلم الجميع هنا وفي كل المملكة بأنه ليس لديها سوى أسرة واحدة، وهي أسرة من البيض فقط».

قاومته الطفلة حين أراد حملها بين ذراعيه إلى غرفة النوم، وكان عليه أن يفهمها بأن نظاماً للرجال هو الذي يسود العالم. وبينما كان في غرفة نوم الجدة يخلع عنها تنورة الزنجيات الكتانية ليستبدلها بقميص النوم، لم يتوصل إلى جعلها تنطق كلمة واحدة. وقد رأتهما بيرناردا من الباب: المركيز جالس على السرير وهو يعالج أزرار قميص النوم التي لا تدخل في العرى الجديدة، والصغـيرة واقفـة قبالته تنظر إليه دون تأثر. فلم تستطع بيرناردا كبح نفسها، وقالت ساخرة: «لماذا لا تتزوجا؟» ولأن

المركيز لم يعرها اهتماماً، فقد أضافت:

«لن تكون الصفقة سيئة بإنجاب مركيزات هجينات بسيقان كقوائم الدجاج لبيعهن إلى الأثرياء».

كان ثمة شيء فيها قد تغير أيضاً. فعلى الرغم من قسوة ضحكتها، إلا أن وجهها كان يبدو أقل مرارة، وكان في أعماق غدرها ترسب من الشفقة لم يلمحه المركيز. وما ان أحس بأنها قد ابتعدت حتى قال للطفلة:

«إنها خنزيرة وقحة».

بدا له أنه لمح في وجه الطفلة بارقة اهتمام. فسألها وهو يطمع في إجابة: «أتعرفين ما معنى خنزيرة وقحة؟». ولكن سييرفا ماريا لم تتنازل بالرد. تركته يمددها على السرير، وتركته يريح رأسها على وسائد الريش، وتركته يغطيها حتى ركبتيها بشرشف الكتان العابق برائحة صنوبر الصندوق الذي كان فيه دون أن تعطف عليه بنظرة واحدة. أحس برعشة ضمير:

«هل تصلين قبل النوم؟».

لم تتكرم الطفلة حتى بالنظر إليه. اتخذت وضعاً جنينياً اعتادت عليه من النوم في الأرجوحة، ونامت دون أن تودعه. أغلق المركيز الكلّة بأكبر قدر من الحذر حتى لا تفصد الخفافيش دمها وهي نائمة. كانت الساعة تقترب من العاشرة، وكانت جوقة المجنونات لا تطاق في البيت المستعاد بعد طرد العبيد منه.

أفلت المركيز كلاب الحراسة التي خرجت تجري مجفلة إلى مخدع

الجدة وهي تتشمم شقوق الأبواب بنباح لاهث. فداعب المركيز رؤوسها بأطراف أصابعه وهدأها بالخبر السعيد:
«إنها سييرفا، ستعيش معنا منذ هذه الليلة».

نام قليلاً وبصورة سيئة بسبب صياح المجنونات اللواتي بقين يغنين حتى الساعة الثانية. وكان أول ما فعله حين استيقظ مع أول الديوك هو أنه ذهب إلى حجرة الطفلة، ولكنها لم تكن هناك وإنما في القسم المخصص للعبدات. استيقظت الزنجية التي كانت تنام في أقرب مكان منها مذعورة:
«لقد جاءت بنفسها يا سيدي» قالت ذلك قبل أن يسألها أي شيء. وأضافت: «حتى أنني لم أنتبه إليها».

كان المركيز يعرف أنها تقول الحق. استفسر عمن منهن كانت برفقة سييرفا ماريا حين عضها الكلب. فعرفته الخلاسية الوحيدة بنفسها وهي ترتجف خوفاً، وكان اسمها كاريداد دل كوبري. فطمأنها المركيز قائلاً:
«اهتمي بها كما لو كنت دومينغا دي ادفيينتو».

شرح لها واجباتها. ونبهها إلى ضرورة ألا ترفع نظرها عنها لحظة واحدة وأن تعاملها بعطف وتفهم، ولكن دون الاسترسال في مراضاتها. والأهم من ذلك ألا تدعها تجتاز السياج الشائك الذي سيقيمه ما بين فناء الزنوج وبقية البيت. وأنه يتوجب عليها أن تقدم تقريراً كاملاً حين تستيقظ كل صباح وقبل أن تنام كل ليلة دون أن يطلب منها ذلك.
واختتم قائلاً:

«انتبهي جيداً لما ستفعلين وكيف ستفعلينه. يجب أن تكوني المسؤولة الوحيدة عن تنفيذ أوامري هذه».

في الساعة السابعة صباحاً، وبعد أن حبس الكلاب في أقفاصها، ذهب المركيز إلى بيت ابرينونثيو. وكان من فتح له الباب هو الطبيب نفسه، إذ لم يكن لديه عبيد ولا خدم. وجَّه المركيز لنفسه التأنيب الذي رأى أنه يستحقه بأن قال:

«هذا ليس وقت زيارة».

فتح الطبيب قلبه ممتناً له على الحصان الذي تلقاه للتو، وقاده عبر الفناء إلى عُشّة حِدادة قديمة لم يبق منها إلا بقايا الكور. كان الحصان الأشقر الجميل الذي أصبح بعيداً عن موطن حنينه يبدو وكأنه يرتعش. فهدأه ابرينونثيو بالتربيت على خديه بينما هو يدمدم في مسمعه بوعود باطلة باللاتينية.

أخبره المركيز كذلك بأنه قد تم دفن الحصان الميت في البستان القديم بمستشفى «محبة الرب» الذي استخدم كمقبرة للأغنياء خلال جائحة الكوليرا. فشكره ابرينونثيو على صنيعه العظيم، وبينما هما يتحدثان، لفت انتباهه أن المركيز يحتفظ بمسافة تفصل بينه وبين الحصان. وقد اعترف هو نفسه بأنه لم يتجرأ على امتطاء جواد على الاطلاق.

قال:

«إنني أخاف الخيول كثيراً مثلما أخاف الدجاج».

فقال ابرينونثيو:

«هذا مؤسف، لأن عدم التواصل مع الخيول تسبب في تأخر البشرية. إذا ما استطعنا تحطيم هذا الحاجز يوماً فسوف نتمكن من صنع القنطورس».

كان البيت من الداخل مضاء بنافذتين مفتوحتين على البحر الكبير، ومرتباً ببهاء فاسد لأعزب متمادٍ في عزوبيته. كان جو المكان كله مفعماً برائحة مراهم بلسمية تغوي بالإيمان بفعالية الطب. كانت هناك طاولة مكتب مرتبة، وواجهة زجاجية ممتلئة بقوارير خزفية عليها كتابات لاتينية. وكانت القيثارة الطبية مهملة في أحد الأركان وقد غطاها غبار ذهبي. وكانت الكتب هي أكثر ما يشد الانتباه، كتب كثيرة باللاتينية أعقابها مزينة بمبالغة. فهناك كتب في خزائن بواجهات زجاجية وخزائن مفتوحة، أو مُنضدة على الأرض باهتمام شديد، وكان الطبيب يمشي عبر مضايق الورق بالسهولة التي يمشي بها خرتيت بين الورود. كان المركيز متضايقاً من كمية الكتب الكبيرة، فقال:

«لابد أن كل ما هو معروف موجود في هذه الحجرة».

فقال ابرينونثيو بمزاج طيب:

«الكتب لا تنفع في شيء. فقد راحت الحياة تشفي أمراضي التي سببها لي أطباء آخرون بأدويتهم».

أزاح قطاً نائماً عن الأريكة الرئيسية، وهي أريكته، لكي يجلس المركيز. قدم له مغلي أعشاب أعده بنفسه على موقد مخبري بينما كان يحدثه

عن تجاربه الطبية، إلى أن لاحظ أن المركيز قد فقد الاهتمام بحديثه. وكان الأمر كذلك حقاً: فقد نهض المركيز فجأة وأولاه ظهره، وراح يتطلع من خلال النافذة إلى البحر المتوحد. أخيراً، وكان مايزال مديراً ظهره، وجد الشجاعة ليبدأ. فدمدم قائلاً:

«أيها المجاز».

ولم يكن ابرينونثيو ينتظر ذلك النداء:

«أيوه؟».

«تحت هيبة كتمان السر الطبي، ومن أجل معرفتكم فقط، أعترف لك بصحة ما يقال»، قال المركيز ذلك بلهجة مهيبة، وأضاف: «الكلب المصاب بالسُعار عض ابنتي أيضاً».

نظر إلى الطبيب فرأى قبالته روحاً مطمئنة.

قال الدكتور:

«أعرف ذلك. وأعتقد أن هذا هو سبب مجيئك في مثل هذه الساعة المبكرة».

«وهو كذلك»، قال المركيز. وأعاد طرح السؤال الذي كان قد وجهه إليه بشأن المصاب بالكَلَب في المستشفى: «ما الذي يمكننا عمله؟».

وبدلاً من إجابته الفظة في اليوم السابق، طلب ابرينونثيو رؤية سييرفا ماريا. وكان هذا هو بالذات ما أراد المركيز طلبه. أي أنه كان موافقاً، وكانت العربة تنتظرهما عند الباب.

حين وصلا إلى البيت، وجد المركيز بيرناردا جالسة إلى خوان الزينة تسرِّح شعرها من أجل لا أحد بتغنج السنوات البعيدة التي مارسا الحب

فيها لآخر مرة، والتي محاها هو من ذاكرته تماماً. كانت الحجرة عابقة بشذى صابونها الربيعي. رأت زوجها في المرآة، فقالت له دون جفاء: «ومن تظننا نكون حتى نهدي خيولاً؟» تحاشاها المركيز، وتناول عن السرير المشعث عباءتها النهارية، وألقى بها على بيرناردا، ثم أمرها دون رأفة:

«البسي، فالطبيب موجود هنا».

قالت:

«الله ينجيني».

فقال لها:

«إنه لم يأتِ من أجلك، مع أنك تحتاجين إليه بشدة. إنه قادم من أجل الصغيرة».

قالت:

«لن يفيدها في شيء. فإما أنها ستموت أو أنها لن تموت: لا وجود لخيار آخر». ولكن قدرة الفضول لديها كانت أكبر: «وأي طبيب هو؟..».

فقال المركيز: «ابرينونثيو».

استنكرت بيرناردا الأمر. فقد كانت تفضل أن تموت مثلما هي، وحيدة وعارية، قبل أن تضع شرفها بين يدي يهودي متخفٍّ. لقد كان طبيباً في بيت والدها، وقد صرفوه لأنه كان يذيع حالة المرضى لكي يضفي الأهمية على تشخيصاته. فواجهها المركيز:

«حتى إذا كنتِ لا تحبينها، وحتى إذا كنت أنا نفسي أحبها أقل منك،

إلا أنك أمها على أي حال. ومن أجل هذا الحق المقدس أطلب منك الموافقة على إجراء الفحص».

فقالت بير ناردا:

«بالنسبة لي، افعلوا ما يحلو لكم.. أنا ميتة».

وعلى خلاف ما هو منتظر، استسلمت الصغيرة دون تكلف لاستكشاف دقيق لجسدها، بالفضول نفسه الذي كانت ستراقب فيه دمية بنابض. قال لها ابرينونثيو: «نحن معشر الأطباء نرى بأيدينا». فابتسمت له الطفلة بسعادة لأول مرة.

حُسن صحتها الذي لا ريب فيه كان ظاهراً للعيان بجلاء، الرغم من مظهرها الرث، كان لها جسد متناسق القوام، يغطيه زغب ذهبي غير مرئي تقريباً، ويشهد بداية تبرعم لتفتح سعيد. كانت أسنانها تامة، وعيناها متألقتين، وقدماها مستريحتين، ويداها ماهرتين، وكل شعرة في رأسها كانت مقدمة لحياة مديدة. ردت على الاستجواب المخاتل بحماس وسيطرة كبيرة على نفسها، وكان لابد من معرفتها جيداً لاكتشاف أن أياً من إجاباتها لم تكن صحيحة.. وقد تيبست حين عثر الطبيب على الندبة في كعبها. وخرج مكر ابرينونثيو مستبقاً:

«هل وقعتِ؟..».

فأكدت الطفلة ذلك دون أن يرف لها جفن:

«من الأرجوحة».

بدأ الطبيب يحدث نفسه باللاتينية. فقاطعه المركيز:

«حدثني باللادينو(*)».

فقال ابرينونثيو:

«لست أحدثك. إنني أفكر بلاتينية منحطة».

كانت سييرفا ماريا مفتونة بجيل ابرينونثيو، إلى أن وضع أذنه على صدرها ليفحصها. كان قلبها ينبض بدوي مرتبك، وأطلق جلدها ندى شاحباً وجليدياً مع رائحة بصل خفيفة. عندما انتهى الطبيب، ربت على خدها بحنان وقال لها:

«أنت شجاعة جداً»..

وبعد أن انفرد بالمركيز، قال له إن الصغيرة تعرف أن الكلب كان مصاباً بالسعار. لم يفهم المركيز ما يعنيه، وقال له:

«لقد قالت لك أكاذيب كثيرة، ولكنها لم تقل شيئاً بهذا الشأن».

فقال الطبيب:

«ليست هي التي أخبرتني يا سيدي. من قال لي ذلك هو قلبها: لقد كان مثل ضفدع حبيس».

أسهب المركيز في إعادة سرد أكاذيب أخرى مفاجئة من تلك التي قالتها ابنته. ولم يفعل ذلك باستياء وإنما بنوع من الافتخار الأبوي، وقال: «ربما ستصبح شاعرة». ولم يوافقه ابرينونثيو على أن الكذب هو شرط للفنون. قال:

«حين تكون الكتابة أكثر شفافية يكون الشعر مرئياً أكثر».

---

* اللهجة الاسبانية المحلية.

الشيء الوحيد الذي لم يستطع تفسيره هو رائحة البصل في عرق الطفلة. ولأنه لم يكن يعرف شيئاً عن أي علاقة بين أي رائحة وداء الكَـلَب، فقد استبعد تلك الرائحـة باعتبـارها عارضـاً للا شيء. وقد كشفت كاريداد دل كوبري فيما بعد للمركيز عن أن سييرفا ماريا قد أسلمت نفسها سراً لعلوم العبيد الذين كانوا يجعلونها تمضغ لبخة من صمغ الأشجار ويحبسونها عارية في قبو البصل لإبطال مفعول سحر الكلب.

لم يجمِّل ابرينونثيو أقل تفصيل من داء الكَلَب. «النوبات الأولى تكون أكثر خطورة وسرعة كلما كانت العضة أكثر عمقاً وأقرب إلى الدماغ»، قال ذلك، وتذكر أن أحد مرضاه قد مات بعد خمس سنوات من العضـة، ولكن بقيت هناك شكوك حول إمكانية كونه قد أصيب بعدوى تالية دون الانتباه إليها. أما التئام الجرح السريع فلا يعني أي شيء: فبعد زمن لا يمكن توقعه قد تتورم الندبة وتنفتح وتتقيح من جديد. ويكون الاحتضار مرعباً إلى حد يصبح معه الموت أفضل. والشيء المباح الوحيد الذي يمكن عمله عندئذٍ هو اللجوء إلى مستشفى «محبة الرب» حيث يوجد سنغاليون مدربون على التعامل مع الهراطقة والممسوسين الهائجين. وإذا كان المركيز لا يريد ذلك، فما عليه إلا أن يتولى بنفسه إبقاء الطفلة مقيدة إلى السرير إلى أن تموت. وانتهى إلى القول:

«وعلى امتداد تاريخ البشرية الطويل، لم تكتب النجاة لأي مصاب بداء الكَلَب كي يروي ما جرى له».

أكد المركيز بإصرار على أنه مصمم على حمل الصليب مهما بلغ ثقله.

أي أن الطفلة ستموت في بيتها. فكافأه الطبيب بنظرة بدت أقرب إلى الرثاء لحاله منها إلى الاحترام. وقال له:

«لا يمكنني أن أنتظر من جنابكم أيها السيد ما هو أقل عظمة من هذا. ولست أشك في أن لدى روحكم ما يكفي من الشجاعة لتحمل ذلك».

أصر مرة أخرى على أن التشخيص ليس مثيراً للذعر. فالجرح بعيد عن منطقة الخطر الكبير، وليس هناك من يذكر أنه رآه ينزف. والاحتمال الأكبر هو ألا تكون سييرفا ماريا قد أصيبت بداء الكَلَب.

سأله المركيز:

«وحتى ذلك الحين؟..».

فقال ابرينونثيو:

«حتى ذلك الحين، اعزفوا لها موسيقى، واملؤوا البيت بالأزهار، واجعلوا العصافير تغرد، وخذوها لترى الغروب في البحر، وقدموا لها كل ما يجعلها سعيدة». حرّك قبعته في الهواء مودعاً، وكعادته الصارمة، أرفق حركته بعبارة لاتينية، ولكنه ترجمها في هذه المرة تكريماً للمركيز: «ليس هناك دواء قادر على شفاء ما تعجز السعادة عن شفائه».

اثنان

لم يُعرف مطلقاً كيف وصل المركيز إلى مثل تلك الحالة من الهوان، ولا لماذا حافظ على حياة زوجية غير متوافقة إلى هذا الحد. في حين كان بإمكانه أن يعيش حياة ترمل هادئة. لقد كان بمقدوره أن يصبح ما يشاء بفضل السلطة الهائلة التي كانت لأبيه، المركيز الأول، الفارس في نظام سنتياغو، ونخاس الأنشوطة والسكين، ورئيس أخوية دينية حربية بلا قلب، والذي لم يبخل عليه مولاه الملك بالتشريفات والوظائف، ولم يحاسبه على جوره.

لم يكن وريثه الوحيد، يغناثيو، يبدي أياً من مظاهر الاهتمام بأي شيء. فقد نما وهو يحمل سمات تخلف ذهني محققة، وبقي أمّياً حتى بلوغه سن الرشد، ولم يكن يحب أحداً. وقد ظهرت عليه أولى علامات الحياة وهو في العشرين من عمره، حين أحب إحدى نزيلات مستشفى «ديفينا باستورا» للأمراض العقلية الذي كانت الأغنيات والصرخات المنطلقة منه هي تهديلة طفولته، وأبدى استعداده للزواج من تلك النزيلة المدعوة دولسي أوليفيا. كانت ابنة وحيدة لأسرة سراجي ملوك، وكان عليها أن تتعلم فن صنع سروج الخيل حتى لا تنقرض معها التقاليد التي حافظت عليها الأسرة طوال قرنين تقريباً. إضافة إلى

تدخلها الغريب في مهنة الرجال، كانت مصابة بالبَلَه، وبصورة سيئة جداً، حتى أن تعـليمهـا الامتناع عن أكل قملها كلف جهداً كبيراً، وماعدا ذلك، كانت تشكل مكسباً أكثر من جيد بالنسبة لمركيز محلي خافت البريق.

كانت دولسي أوليفيا تتمتع بقريحة حية وطبع طيب، ولم يكن من السهل اكتشاف بلاهتها. ومنذ المرة الأولى التي رآها فيها الشاب يغناثيو، ميزها وسط ضجة الشرفة، وفي ذلك اليوم بالذات تفاهما بالإيماءات. وكمتهتكة مشهورة، كانت ترسل إليه رسائل في قصاصات من الورق. فتعلَّم القراءة والكتابة كي يراسلها، وكانت تلك بداية عاطفة حقيقية لم يشأ أحد أن يفهمها. فقد ثارت ثائرة المركيز الأول، وهدد ابنه لكي ينفي الأمر علناً.

فرد عليه يغناثيو: «ليس ذلك صحيحاً وحسب، بل لدي إذن منها كذلك بأن أطلب يدها». وأمام تعلل أبيه بحجة الجنون، رد عليه بجنونه:

«ليس أي مجنون مجنوناً إذا كان مقتنعاً بحججه».

نفاه أبوه إلى اقطاعاته مع تفويض بالتصرف كمالك وسيد، ولكنه لم يتكرم باستخدام ذلك التفويض. لقد كان مثل ميت في الحياة. كان يغناثيو يشعر بالرعب من الحيوانات، ما عدا الدجاج. ومع ذلك، فقد راقب في منفاه دجاجة حية عن قرب، وتخيلها متضخمة إلى حجم بقرة، وانتبه إلى أنها مسخ أشد هولاً من كل مسوخ اليابسة والماء. كان يتعرق عرقاً بارداً في الظـلام ويستيقظ مختنقاً في الفجر بسبب صمت المرابع الشبحي. أما كلب الحراسة الذي كان يسهر دون أن يرف له جفن أمام

غرفة نومه، فكان يقلقه أكثر من كل الأخطار الأخرى. وكان هو نفسه من قال: «إنني أحيـا مفزعاً من كوني حياً».. وفي منفاه اكتسب موهبة الكآبة، والمظهر الصامت، والطبيعة التأملية، وأساليب الفتور والتكلم البطيء، وميولاً صوفية بدت وكأنها حكمت عليه بالذهاب إلى صومعة متوحدة.

بعد سنة في المنفى، أيقظه هدير مثل دوي الأنهار عند الفيضان، وما جرى هو أن حيوانات الإقطـاعيـة كانت تغادر حظائرها عبر الحقل بصمت مطلق تحت ضوء القمر المكتمل. كانت تهدم دون صخب كل ما يعرقل مرورها في خط مستقيم عبر المروج وحقول القصب ومجاري الجداول والمستنقعات. في المقدمة كانت تمضي قطعان المواشي الكبرى وخيول الحمل والتنزه، تتبعها الخنازير والأغنام والطيور الداجنة، وتتقدم كلهـا في صف مشؤوم لتتـلاشى في ظلمة الليل. وحتى الطيور ذات الطيران الطويل، بما فيها الحمائم، مضت ماشية. وكان كلب الحراسة وحده هو الذي طلع عليه الصباح وهو مايزال في موقع حراسته أمام مخدع السيد. فكانت تلك هي بداية الصداقة شبه الإنسانية التي احتفظ بها المركيز نحو ذلك الكلب وغيره من كلاب الحراسة الكثيرة التي تلته في البيت.

فاض يغناثيو الشاب بالرعب في الإقطاعية المقفرة، فتخلى عن حبه وانصاع لمشيئة أبيه. فلم يكتفِ هذا الأخير بالتضحية بالحب، بل فرض عليه شرط الزواج من وارثة شخص عظيم من اسبانيا. وهكذا تزوج في حفلة زفاف صاخبة من دونيا أولايا دي ميندوثا، المرأة الباهرة الجمال

ذات المواهب العظيمة والمتعددة، والتي أبقاها عذراء حتى لا ينعم عليها بالحصول على ابن. أما ما سوى ذلك، فقد واصل العيش مثلما كان منذ ولادته: أعزب غير مجدٍ.

وضعته دونيا أولايا دي ميندوثا على احتكاك بالعالم. فكانا يذهبان معاً إلى الصلاة الكبرى، بدافع حب الظهور أكثر من الرغبة في أداء الواجب الديني، حيث كانت ترتدي فساتين سوداء شديدة الفخامة، ومعاطف متألقة، وطرحات من دنتيلا قشتالة البيضاء المنشاة، وكان يرافقها موكب من عبداتها المتسربلات بالحرير والذهب. وبدلاً من الأخفاف البيتية التي كانت تستخدمها في الكنيسة حتى أكثر المتألقات، كانت هي تنتعل حذاء ذو كعب عالٍ من جلد المعز مزين بحبات لؤلؤ. وعلى خلاف غيره من الأعيان ممن كانوا يستخدمون شعوراً مستعارة قديمة ومهجورة وأزراراً من الزمرد، كان المركيز يرتدي ملابس قطنية ويعتمر قبعة طرية. ومع ذلك، فقد كان يحضر الاحتفالات العامة مكرهاً على الدوام لأنه لم يستطع التخلص مطلقاً من خوفه من الحياة الاجتماعية.

كانت دونيا أولايا قد تتلمذت على يد سكارلاتي دومينيكو في سيغوبيا، وقد حصلت بامتياز على إجازة في تعليم الموسيقى والغناء في المدارس والأديرة. وقد جاءت من هناك ومعها بيانو مفكك الأجزاء أعادت تركيبه هي نفسها، وعدة آلات موسيقية وترية أخرى كانت تعزفها وتعلّم العزف عليها بفعالية كبيرة. وقد شكلت جوقة موسيقية من عازفات مستجدات، فطهّرت أمسيات البيت بنفحات جديدة من

إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، حتى صار يقال عنها إنها ملهمة بغنائية الروح القدس.

كان يبدو على المركيز أنه أخرق فيما يتعلق بالموسيقى. وكان يقال، على الطريقة الفرنسية، إنه يملك يدي فنان ومسمع مدفعيّ. ولكنه، منذ اليوم الذي فُتحت فيه حزم الأدوات الموسيقية، ركز انتباهه على التيوربا الإيطالية لغرابة أوتارها المزدوجة وحجم نغماتها وعدد أقواس علبتها وصوتها النقي. وقد بذلت أولايا جهودها لكي تجعله يعزف عليها جيداً مثلها. كانا يمضيان الأصباح في تمرينات متلعثمة تحت أشجار البستان: هي بدأب وحب، وهو بعنادِ قاطع أشجار، إلى أن استسلمت له مقطوعة غزلية نادمة دون ألم.

لقد حسّنت الموسيقى من انسجام حياتهما الزوجية إلى حد كبير، حتى أن دونيا أولايا تجرأت على القيام بالخطوة الأولى التي كانت تحتاجها. ففي إحدى الليالي العاصفة، ربما وهي تتظاهر بخوف لم تكن تشعر به، ذهبت إلى حجرة المركيز الذي لم يُمس، وقالت له:

«أنا سيدة نصف هذا السرير، وقد جئت للمطالبة به».

بقي محافظاً على عناده، وواصلت هي أيضاً عنادها واثقة من أنها ستتمكن من إقناعه بالعقل أو بالقوة. لكن الحياة لم تعطِها الوقت لتحقيق ذلك. ففي يوم تاسع من تشرين الثاني، كانا يعزفان معزوفة ثنائية تحت أشجار البرتقال، لأن الهواء كان نقياً والسماء عالية ودون غيوم، حين بهر أبصارهما برق مفاجئ، وأخرجهما دوي زلزالي عن طوريهما، وهوت دونيا أولايا محترقة بالصاعقة.

المدينة التي فوجئت بالمأساة فسرتها بأنها غضب إلهي لخطيئة لم يجرِ الاعتراف بها. أمر المركيز بأن يقام لها مأتم يليق بملكة، وقد ظهر في تلك المناسبة لأول مرة بحرير التفتا الأسود وباللون الشاحب الذي سيحتفظ به إلى الأبد. ولدى عودته من المقبرة فوجئ بقصاصات ورقية تساقطت كالثلج على أشجار البرتقال في البستان. تناول واحدة منها دون تعيين وفتحها، وقرأ فيها: **هذه الصاعقة كانت مني**.

وقبل قداس اليوم التاسع بعد الوفاة، كان قد تبرع للكنيسة بالممتلكات المادية التي وطدت عظمة ميراثه كابن وحيد: مزرعة مواشي في مومبوكس وأخرى في ايابيل، وألفا هكتار في ماهاتيس، على بعد فرسخين من هنا فقط، مع عدة قطعان من خيول التهجين والركوب، وأفضل معصرة لقصب السكر على ساحل الكاريبي. ومع ذلك، فإن أسطورة ثروته كانت تستند إلى إقطاعية هائلة الاتساع ومهملة، تضيع حدودها الخيالية في الذاكرة مما وراء مستنقعات لاغواريبا ومنخفضات لابوريثا حتى أحراش شجيرات المانغلي في أورابا. الشيء الوحيد الذي احتفظ به هو البيت الفخم مع فناء الخدم الذين تم تقليص عددهم إلى أدنى الحدود، ومعصرة قصب السكر في ماهاتيس. وقد أوكل إلى دومينغا دي ادفيينتو إدارة البيت. وأبقى نبتون العجوز في منصب الحوذي الذي كان قد عينه فيه المركيز الأول، وكلفه كذلك بالسهر على القدر القليل المتبقي من الخيول المنزلية.

حين بقي للمرة الأولى وحيداً في منزل أسلافه القاتم، كان لا يكاد يستطيع النوم في الظلام بسبب الخوف الخِلقي الذي يشعر به النبلاء

المحـليون من تعرضهم للقتل على يد عبيدهم وهم نيام. كان يستيقظ فجأة دون أن يعرف إذا ما كانت العيون المحمومة التي تطل من كوى الضـوء هي من هذا العـالم أم من العالم الآخر. وكان يذهب على رؤوس أصابعه إلى الباب، فيفتحه فجأة، ويفاجئ زنجياً يراقبه من خلال فتحة القفل. كان يشعر بهم ينسلون بخطوات نمر في الممرات وهم عراة ومطليون بسمنة جوز الهند حتى لا يتمكن أحد من الإمساك بهم. صعقته تلك المخاوف الكثيرة مجتمعة، فأمر بإبقاء الأنوار مضاءة حتى الفجر، وطرد العبيد الذين أخذوا يستولون شيئاً فشيئاً على الأماكن الشاغرة، وأحضر إلى البيت أول كلاب الحراسة المدربة على فنون الحرب.

أُغلقت البوابة. وأُهملوا الأثاث الفرنسي الذي فاحت روائح العفونة من مخمـله بفعـل الرطوبـة، وباعوا الأواني النحـاسيـة والخزفيـات والسـاعات المشغولة ببراعة، واكتفوا بأراجيح النوم لتسكـين الحر في الحجرات المعراة. لم يعد المركيز إلى الصلاة أو إلى الخلوات، ولـم يعد يلبس عباءة القداسة العظمى في المواكب، ولـم يعد يهتم بالأعياد ولا يحترم الصـوم بالرغم من أنه واصـل دفع الضريبـة إلى الكنيسـة في مواعيدها الدقيقـة. التجأ إلى أرجوحة النوم في مخدعه ليغفو إغفاءات آب، وكان ينام القيلولة على الدوام تقريباً في أرجوحة النوم تحت أشجار البرتقال في البستان. كانت مجنونات المستشفى يرمينه بفضلات المطبخ ويصرخن بنداءات رقيقة موجهة إليه، ولكنه حين قدمت إليه الحكومة الجميل بنقل مستشفى الأمراض العقلية، عارض ذلك تعبيراً عن امتنانه لنزيلاته.

أما دولسي أوليفيا المهزومة أمام صدود خطيبها السابق، فقد راحت تواسي نفسها بالحنين إلى ما لم يكن. فكانت تهرب من مستشفى ديفينا باستورا عبر فتحات سياج البستان كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وطوعت كلاب الحراسة وجعلتها موالية لها بطُعْم المحبة الطيبة، وراحت تكرس ساعات نومها للعناية بالبيت الذي لم تستطع الحصول عليه أبداً، فكانت تكنسه بمكانس من الحبق من أجل حسن الطالع، وتعلق ضفائر الثوم في غرف النوم لتبعد الناموس عنها. أما دومينغا دي ادفيينتو التي لم تكن يدها اليمنى تترك شيئاً للصدفة، فقد ماتت دون أن تكتشف سبب ظهور الممرات في الصباح أنظف مما كانت عليه في الليل، أو السبب الذي يجعل الأشياء التي رتبتها بطريقة معينة، تظهر في الصباح بطريقة أخرى. وقبل انقضاء سنة على ترمل المركيز، فاجأ دولسي أوليفيا لأول مرة في إحدى الليالي وهي تجلي أواني المطبخ التي بدا لها أن العبدات لا يعتنين بها كما يجب.

قال لها:

«لم أكن أظن أن الجرأة ستصل بك إلى هذا الحد»..

فردت عليه:

«لأنك ماتزال المسكين الذي كنته دائماً»..

وهكذا تجددت صداقة محظورة بدت مرة على الأقل وكأنها غرام. كانا يتبادلان الحديث حتى الفجر، دون أوهام ولا أحزان، مثل زوجين عتيقين معتادين على الروتين. كانا يظنان أنهما سعيدان، وربما كانا كذلك حقاً، إلى أن يتفوه أحدهما بكلمة زائدة، أو يقوم بخطوة ناقصة،

فتتعفن الليلة في نزاع همجي يثبط عزيمة كلاب الحراسة. ويعود كل شيء عندئذٍ إلى البداية. وتختفي دولسي أوليفيا من البيت لوقت طويل.

وقد اعترف لها المركيز بأن ازدراءه للثروات الدنيوية والتبدلات التي طرأت على طريقته في الحياة لم تكن بدافع الورع وإنما بفعل الرعب الذي سببه له فقدانه المفاجئ للإيمان حين رأى جسد زوجته متفحماً من الصاعقة. عرضت دولسي أوليفيا نفسها لمواساته. وعدته بأن تكون عبدته المطيعة في المطبخ وفي الفراش على السواء، ولكنه لم يتراجع، وأقسم لها:

«لن أتزوج بعد الآن مطلقاً»..

مع ذلك، وقبل انقضاء سنة، كان قد تزوج من بيرناردا كابريرا، ابنة ناظر عمال قديم لدى والده حقق صعوداً من المتاجرة بالبضائع الواردة من وراء البحار. لقد تعرف عليها حين كلفها بأن تحمل إلى بيته أسماك رنكة بالماء المملح كانت زوجته دونيا أولايا مغرمة بها، وقد واصلت إحضارها للمركيز بعد موت زوجته. وفي مساء أحد الأيام وجدته بيرناردا في أرجوحة النوم وقرأت طالعه المكتوب على بشرته في راحة يده اليسرى. وقد تأثر المركيز جداً بتحديداتها الصائبة وواظب على استدعائها في وقت القيلولة حتى ولو لم يكن هناك ما يريد شراءه منها، وقد مضى شهران على تلك الحال دون أن يبادر إلى عمل أي شيء. فما كان منها إلا أن تصرفت هي بدلاً منه. امتطته وهو في أرجوحة النوم بهجمة مباغتة وكمت فمه بأذيال الجلباب الذي كان يرتديه إلى أن تركته مستنفد القوى. عندئذٍ ردت إليه الحياة باحتدام ودراية لم يتصورهما في

اللذات الهزيلة لغرامياته المتوحدة، وجردته من عذريته دون أمجاد. كان قد أكمل آنذاك اثنتين وخمسين سنة، وكانت هي في الثالثة والعشرين من عمرها، ولكن فرق السن كان أقل الأمور شأناً.

واصلا ممارسة الحب في وقت القيلولة، بسرعة وهلع، في ظل أشجار البرتقال الإنجيلية. وكانت المجنونات يشجعنهما بأغنيات بذيئة من شرفة المستشفى ويحيّين انتصاراتهما بتصفيق مدوٍ كما في ملعب. وقبل أن يعي المركيز المخاطر التي كانت تترصده، أخرجته بيرناردا من غيبوبته بخبر أنها حبلى في الشهر الثاني. ذكرته بأنها ليست زنجية، وإنما ابنة هندي مولد وبيضاء قشتالية، أي أن الإبرة الوحيدة التي يمكنه أن يرفو بها شرفها هي الزواج الرسمي. فماطلها في الأمر إلى أن طرق أبوها الباب في ساعة القيلولة يوماً ومعه بندقية قديمة بحزام. كان رجلاً بطيء الكلام ورقيق الحركات، وقد قدم السلاح الذي يحمله إلى المركيز وسأله دون أن ينظر إلى وجهه مباشرة:

«هل تعرف ما هو هذا الشيء أيها السيد المركيز؟..»..

لم يعرف المركيز ما الذي يفعله بالسلاح الذي صار في يده، وقال: «إلى حيث يصل علمي، أظن أنها بندقية».. ثم سأله وهو مستغرب حقاً: «لأي شيء تستخدمها؟..».

«لكي أحمي نفسي من القراصنة يا سيدي»، قال الهندي ذلك دون أن ينظر إلى وجه المركيز بعد. ثم أضاف: «وقد أحضرتها الآن لأرى إذا كنت تريد يا صاحب السعادة أن تتفضل بقتلي قبل أن أقتلك».

نظر المركيز إلى وجهه. كانت عيناه حزينتين وصامتتين، ولكن المركيز

فهم ما لم يقله الرجل. أعاد إليه البندقية ودعاه إلى الدخول من أجل الاحتفال بالاتفاق. وبعد يومين من ذلك عقد كاهن الكنيسة المجاورة قرانهما بحضور أبويها وعرابي العروسين. وبعد انتهاء الطقوس، ظهرت ساغونتا من حيث لا يدري أحد وتوجت العروسين بإكليلي السعادة.

في يوم أمطار متأخرة، وتحت برج القوس، ولدت سييرفا ماريا دي تودوس لوس انـخيلس بعد سبعة شهور من الحمل وبصورة سيئة. كانت تبدو مثل شرغ ضفدع حائل اللون، وكان الحبل السري الملتف حول عنقها يوشك أن يخنقها.

قالت المُولِّدة:

«إنها أنثى.. ولكنها لن تعيش»..

وكان أن نذرت دومينغا دي ادفيينتو لقديسيها عندئذٍ ألا يُقص شعر الطفلة حتى ليلة زفافها إذا كتب لها البقاء على قيد الحياة.. وما كادت تنطق بنـذرها ذاك حتى انفجرت الطفـلة بالبكـاء، فتهـللت دومينغـا وصاحت: «ستكون قديسة!..». أما المركيز الذي رأى الطفلة بعد غسلها وإلباسها فقد كان أقل إلهاماً، إذ قال:

«ستكون قحبة إذا منحها الله الحياة والصحة»..

الطفـلة التي كان أبوها نبيـلاً وأمهـا من العامة، عاشت طفولتها كلقيطة، فالأم كرهتها مذ أرضعتها للمرة الوحيدة، ورفضت إبقاءها معها خشيـة أن تقتـلهـا. فأرضعتهـا دومينغا دي ادفيينتو، وعمدتها للمسيح وقدستها إلى أولوكون، أحد آلهة قبائل اليوربا غير محدد الجنس، يفترض أن وجهه مرعب جداً بحيث لا يسمح برؤيته إلا في الأحلام، ويكون

مقنَّعاً على الدوام. نُقلت سييرفا ماريا إلى فناء العبيد، وتعلمت هناك الرقص قبل أن تتعلم الكلام، وأتقنت ثلاث لغات افريقية في الوقت نفسه، وتعلمت أن تشرب دم الديكة على الريق وأن تنسل بين المسيحيين دون أن تكون مرئية أو مسموعة، وكأنها كائن غير مادي. وقد أحاطتها دومينغا دي ادفيينتو بحاشية مرحة من العبدات الزنجيات، والخادمات الخلاسيات، والساعيات الهنديات اللواتي كن يحممنها بمياه خاصة، ويطهرنها بعشبة رعي الحمام من يمايا، ويعتنين كما بنبتة ورد بشعرها سريع النمو الذي كان يصل حتى خاصرتها وهي في الخامسة من عمرها. وشيئاً فشيئاً راحت العبدات يعلقن في عنقها عقوداً لمختلف الآلهة، حتى وصل عددها إلى ستة عشر عقداً.

كانت بيرناردا قد أمسكت مقدرات البيت بقبضة قوية بينما كان المركيز يعيش خاملاً في البستان. كان مسعاها الأول هو إعادة تجميع الثروة التي وزعها زوجها محتمية بسلطات المركيز الأول الذي كان قد حصل في زمانه على تصريح ببيع خمسة آلاف عبد خلال ثمانية أعوام، مع التعهد بالسماح له بأن يستورد في الوقت نفسه برميلي طحين لكل واحد من أولئك العبيد. فاستطاعت بحيلها البارعة وبرشوة الجمركيين أن تبيع الطحين المتفق عليه، ولكنها باعت كذلك بالتهريب ثلاثة آلاف عبد آخر، فحولها ذلك إلى التاجرة الأكبر حظاً في عصرها.

وكان أن خطر لبيرناردا أن التجارة الجيدة ليست تجارة العبيد وإنما الدقيق، وإن كانت التجارة العظمى في الواقع هي قدرتها غير المعقولة على الاقناع. فبتصريح واحد باستيراد ألف عبد خلال أربع سنوات

وثلاثة براميل دقيق لكل واحد منهم، حققت صفقة حياتها: فقد باعت الزنوج الألف المصرح ببيعهم، ولكنها بدلاً من الثلاثة آلاف برميل دقيق، استوردت اثني عشر ألف برميل. فكانت تلك هي أكبر عملية تهريب في القرن.

كانت تمضي نصف وقتها آنذاك في معصرة قصب السكر في ماهاتيس، حيث أقامت مركز أعمالها لقربها من نهر مجدلينا الكبير، لكي تتاجر بكل شيء مع المناطق الداخلية من الولاية. وكانت ترد إلى بيت المركيز أخبار متفرقة عن ازدهارها الذي لم تكن تقدم كشفاً فيه أمام أحد. أما الوقت الذي كانت تمضيه في البيت، حتى قبل الأزمة، فكانت تبدو فيه وكأنها كلب آخر من كلاب الحراسة الحبيسة. وقد عبرت دومينغا دي ادفيينتو عن ذلك بصورة أفضل حين قالت: «إن جسدها لا يتسع لمؤخرتها».

احتلت سيرفا ماريا مكاناً مستقراً في البيت لأول مرة بعد وفاة عبدتها، فرتبوا لها المخدع الرائع الذي عاشت فيه المركيزة الأولى. عينوا لها مؤدباً ليعطيها دروساً باللغة الإسبانية حسب لهجة شبه الجزيرة ويعلمها الحساب والعلوم الطبيعية. وقد حاول أن يعلمها القراءة والكتابة، إلا أنها رفضت لأنها لا تفهم الحروف حسب قولها. بدأت معلمة علمانية بتدريبها على تذوق الموسيقى. فأظهرت الطفلة اهتماماً وذوقاً جيدين، ولكن لم يكن لديها من الصبر ما يكفي لتعلم العزف على أي آلة. فاستقالت المعلمة مذعورة وقالت للمركيز حين ودعته:

«ليست المشكلة في رفض الطفلة لكل شيء، وإنما في كونها ليست من هذا العالم».

أرادت بيرناردا أن تشفي غليلها، ولكنها سرعان ما اكتشفت أن الذنب ليس ذنب أي منهما، وإنما تقع المسؤولية عليهما معاً. وكانت تعيش وروحها معلقة بخيط مذ اعتقدت بأنها اكتشفت وجود قدرة شبحية لدى ابنتها. كانت ترتجف لمجرد التفكير في اللحظة التي ستلتفت فيها إلى الوراء وتلتقي بالعينين الخفيتين لابنتها الهزيلة ذات الثياب الشفافة والشعر البَرِّي وهي تحدق بباطن ركبتيها. فكانت تصرخ بها: «أيتها الصغيرة!.. إني أمنعك من النظر إليَّ هكذا!». وحين تكون في أوج تركيزها على أعمالها التجارية تحس بأنفاسٍ مصفِّرةٍ لأفعى تترصد في رقبتها، فتقفز مذعورة وتصرخ بها:

«أيتها الصغيرة!.. أحدثي ضجة قبل أن تدخلي!..».

فتزيد الطفلة من رعبها بترتيلة بلغة اليوربا. وكان الأمر يزداد سوءاً في الليل، لأن بيرناردا كانت تستيقظ فجأة وهي تشعر بأن أحداً قد لمسها، فتجد الطفلة واقفة عند طرف السرير تنظر إليها وهي نائمة. ولم يجدِ نفعاً وضع جلجل في معصمها، لأن تكتم سييرفا ماريا كان يحول دون رنينه. «الشيء الأبيض الوحيد في هذه المخلوقة هو لون بشرتها فقط»، هذا ما كانت تقوله الأم. وكان ذلك صحيحاً لدرجة أن الطفلة كانت تستبدل اسمها باسم آخر افريقي اخترعته: ماريا مانديغا.

وقد تحولت العلاقة بينهما إلى أزمة في فجر أحد الأيام، حين نهضت بيرناردا وهي تكاد تموت من العطش لإفراطها في تناول الكاكاو،

فوجدت إحدى دمى سييرفا ماريا طافيـة في الخابية. ولم تبدُ لها في الواقع مجرد دمية تطفو في الماء، وإنما رأت فيها شيئاً رهيباً: دمية ميتة.

كانت موقنة من أن ذلك سحر افريقي أسود استخدمته سييرفا ماريا ضدها، وقررت أنه لم يعد في البيت متسع لهما معاً. حاول المركيز بذل وساطة مترددة، فأوقفته بحزم: «إما هي وإما أنا». وهكذا عادت سييرفا ماريا للاقامة في برّاكة العبدات، وكانت تبقى هناك حتى حين تكون أمهـا في معصرة قصب السكر. وبقيت منغلقة تماماً مثلما كانت عند ولادتها، وأمية مطلقة الأمية.

لكن بيرناردا لم تكن أحسن حالاً.. فقد حاولت الاحتفاظ بيهوذا الاسخريوطي بالتشبه به، وفي أقل من سنتين فقدت سيطرتها على اتجاه الأعمال التجارية، واتجاه الحياة نفسها. كانت تجعله يتنكر بزي قرصان نُوبي أو آس الكبة أو الملك ميلتشور، وتأخذه إلى الأرباض ، خصوصاً عندما ترسو سفن الغاليون وتشتعل المدينة في حفلة تستمر نصف سنة. كانا يرتادان الحانات وبيوت الدعارة المقـامة خارج الأسـوار للتجـار القادمين من ليما وبورتوبيلو وهافانا وفيراكروث للفوز بسلعِ وبضائعِ كل العالم المكتشف. وفي إحدى الليالي كان يهوذا يوشك على الموت سكراً في حانة للمجذفين، فاقترب من بيرناردا بسرية بالغة، وقال لها:

«افتحي فمك وأغمضي عينيك».

فعلت ما طلبه منها، ووضع على لسانها قطعة شيكولاتة سحرية من اواكساكا. تعرفت بيرناردا على المذاق وبصقت الشيكولاته، فقد كانت تشمئز منها منذ طفولتها. حاول يهوذا إقناعها بأنها مادة مقدسة تبعث

البهجة في الحياة، وتضاعف القوة الجسدية، وتزيد الحماسة والقدرة الجنسية.

فأطلقت بيرناردا ضحكة مجلجلة وقالت:

«لو أن الأمر كذلك، لكانت راهبات سانتا كلارا مثل ثيران المصارعة».

كانت مولعة بالعسل المختمر، تتناوله مع صديقاتها في المدرسة منذ ما قبل زواجها، وواصلت استهلاكه، ليس عبر فمها فقط وإنما عبر حواسها الخمس في معصرة القصب الحار. تعلمت مع يهوذا مضغ التبغ وأوراق الكوكا الممزوجة برماد نخيل الموريتشي مثلما يفعل هنود سييرا نيفادا، وجربت في الحانات تعاطي قنب الهند، وبطم قبرص، وبييوتة الريال دي كاتورسي، وأفيون ناو الصيني من خلال مهربين فيلبينيين. ولكنها لم تصم أذنيها مع ذلك عن دعوة يهوذا لها إلى تجريب الكاكاو. وقد اعترفت بفضائله في نهاية المطاف، وفضلته على كل ما عداه. تحول يهوذا إلى لص وقواد ولوطي عرضي، وكان يفعل كل ذلك تمادياً في الفجور، إذ لم يكن ينقصه أي شيء. وفي ليلة مشؤومة، واجه أمام بيرناردا بيديه العزلاوين ثلاثة مجذفين في الأسطول بسبب نزاع في لعب الورق، فقتلوه بالكراسي.

اعتكفت بيرناردا في معصرة قصب السكر. وبقي البيت في كف القدر، وإذا كان لم يغرق منذ ذلك الحين، فإن الفضل يعود إلى براعة يد دومينغا دي ادفيينتو التي انتهت من تكوين سييرفا ماريا مثلما شاء آلهتها. عرف المركيز شيئاً قليلاً عن انهيار زوجته. فقد كانت تصل من

معصرة قصب السكر أخبار تقول إنها تعيش في حالة من الهذيان، وإنها تكلم نفسها، وإنها كانت تنتقي أكثر الخدم قوة لتشركهم في لياليها الرومانية مع زميلاتها القديمات في المدرسة. والثروة التي جاءتها مثل الماء، كانت تتسرب منها كالماء، وكانت تحت رحمة أزقاق العسل وأكياس الكاكاو التي تحتفظ بها مخبأة هنا وهناك كيلا تضيّع الوقت حين تداهمها الرغبة في تناولها. الشيء المؤكد الوحيد الذي بقي لديها عندئذ هو جرتين مملوءتين بذهب خالص في قطع من فئة المئة وفئة الربع، كانت قد دفنتهما تحت السرير في زمن الأبقار السمان. كان التلف الذي لحق بها كبيراً لدرجة أن زوجها نفسه لم يتعرف عليها عندما رجعت من ماهاتيس آخر مرة، بعد أن أمضت هناك ثلاث سنوات متواصلة. وقبل أن يعض الكلب سييرفا ماريا بوقت قصير.

في منتصف آذار، بدا وكأن مخاطر داء الكَلَب قد تم تجاوزها. واستعد المركيز، شاكراً حسن حظه، لإصلاح ماضيه والوصول إلى قلب ابنته بوصفة السعادة التي نصحه بها ابرينونثيو. فكرَّس لها كل وقته. حاول أن يتعلم كيف يسرح شعرها وكيف يجدل ضفيرتها. حاول تعليمها أن تكون بيضاء فعلاً، وأن يرمم من أجلها أحلامه المحبطة كنبيل محلي، وأن يخلصها من مذاق لحم العظاءات المخلل ولحم المدرع المطبوخ. لقد حاول عمل كل شيء، اللهم إلا سؤالها عما إذا كانت تلك هي الطريقة الصحيحة لإسعادها.

واصل ابرينونثيو زيارة البيت. لم يكن من الصعب عليه التفاهم مع المركيز، ولكنه كان مهتماً بفقدانه الوعي في إحدى ضواحي عالم محاكم التفتيش المرعب. وهكذا كانا يقضيان شهور الحر، هو يتكلم دون من يسمعه تحت أشجار البرتقال المزهرة، والمركيز يتعفن في أرجوحة النوم على بعد ألف وثلاثمئة فرسخ بحري عن ملك لم يسمعه مطلقاً وهو يمنحه لقبه. وفي إحدى تلك الزيارات قاطعهما زحير كئيب تطلقه بيرناردا.

سيطر الذعر على ابرينونثيو. بينما تظاهر المركيز بالصمم، لكن الأنّة التالية كانت مؤثرة جداً ولم يستطع تجاهلها.

قال ابرينونثيو:

«إنه بحاجة إلى صلاة الجنازة كائناً من يكون».

فقال المركيز:

«إنها زوجتي في زواج ثانٍ».

قال ابرينونثيو:

«كبدها تالف».

«وكيف تعرف ذلك؟».

فقال الطبيب:

«لأنها تتأوه بفم مفتوح».

دفع الباب دون استئذان وحاول رؤية بيرناردا في عتمة الحجرة، فلم يجدها في السرير. ناداها باسمها، فلم ترد عليه. عندئذ فتح النافذة فأظهرها نور الساعة الرابعة المعدني متوقدة وعارية ومصلوبة على

الأرض، محاطة ببريق غازاتها المميتة. كان لون بشرتها شاحباً كلون سواد الغدة الصفراوية المكتنزة. رفعت رأسها اللامع بضوء النافذة التي فتحت فجأة، ولم تتعرف على الطبيب وهي تواجه الضوء. أما هو، فكانت تكفيه نظرة واحدة ليرى مصيرها.

قال لها:

«إن البومة تنعب لك يا ابنتي».

وأوضح لها أنه مازال هناك متسع لإنقاذها إذا ما وافقت على إخضاع نفسها لعلاج مستعجل لتنقية الدم. عندئذ عرفته بيرناردا، فنهضت كيفما استطاعت، وراحت توجه إليه الشتائم. تحمل ابرينونثيو اللعنات دون تأثر بينما هو يعيد إغلاق النافذة. وحين خرج، توقف أمام أرجوحة نوم المركيز وحدد تشخيصه:

«ستموت السيدة المركيزة في الخامس عشر من أيلول على أبعد تقدير، إذا هي لم تشنق نفسها على عارضة السقف قبل هذا الموعد».

فقال المركيز دون تأثر:

«الشيء السيء الوحيد هو أن الخامس عشر من أيلول مايزال بعيداً جداً».

واصل علاج سييرفا ماريا بالسعادة. فكانا يتأملان من فوق رابية سان لاثارو المستنقعات المهلكة في الشرق، ويريان في الغرب الشمس الحمراء الهائلة وهي تغطس في المحيط الملتهب. سألته عما يوجد في الجهة الأخرى من البحر، فرد عليها: «الدنيا». وفي كل إيماءة منه كان يجد لدى الطفلة صدى غير متوقع. وفي إحدى الأمسيات، شاهدا في

الأفق ظهور أسطول الغاليونات بأشرعته التي تكاد تتفزر.

تغيرت المدينة. وصار الأب وابنته يتسليان بمشاهدة الدمى، وآكلي النار، وببدع مهرجانية لا حصر لها جاءت إلى الميناء في شهر نيسان ذاك ذي النذر الطيبة. وتعلمت سييرفا ماريا من شؤون البيض خلال شهرين أكثر من كل ما تعلمته سابقاً. وفي محاولته ليجعل منها إنسانة أخرى، أصبح المركيز نفسه مختلفاً أيضاً، وكان ذلك بطريقة جذرية لا تبدو تبدلاً في الطبع وإنما تحولاً في الطبيعة.

امتلأ البيت بكل أشكال راقصات النوابض وعلب الموسيقى والساعات الميكانيكية التي كان بالإمكان رؤيتها في مهرجانات أوربا. أخرج المركيز آلة التيوربا الايطالية. ربط أوتارها ودوزنها بمثابرة لا يمكن فهمها إلا باعتبارها نابعة من الحب، وعاد يرفق عزفه بغناء الأغنيات القديمة بصوت جيد وسماع سيء لم تبدله السنوات ولا الذكريات العكرة. وقد سألته هي في أحد تلك الأيام عما إذا كان صحيحاً ما تقوله الأغاني عن قدرة الحب على كل شيء.

فرد عليها:

«هذا صحيح. ولكنك تحسنين صنعاً بعدم تصديق ذلك».

ولسعادته بالأخبار الجديدة، بدأ المركيز التفكير بالقيام برحلة إلى اشبيلية لكي تتمكن سييرفا ماريا من الشفاء من كروبها الصامتة وتنهي دراستها عن العالم. وكان قد تم تحديد موعد الرحلة ومسارها حين أيقظته كاريداد دل كوبري من قيلولته بالخبر الفظ المفاجيء:

«سيدي، الطفلة المسكينة آخذة بالتحول إلى كلب».

لكن ابرينونثيو الذي استدعي على عجـل، فند الخرافات الشعبية القائلة بأن المصابين بداء الكَلَب يصبحون في نهاية المطاف مثل الحيوان الذي عضهم. أكد أن لدى الطفلة شيئاً من الحمى، وبالرغم من أن الحمى تعتبر مرضاً قائماً بذاته وليست عارضاً لأمراض أخرى، إلا أنه لم يتجاهلها. وحذر السيد المغموم من أن الطفلة ليست بمنجى من أي داء، فعضــة كلب مسعور أو غير مسعور لا توفر الحمـاية من أتي شيء. وكعادته، كان الملاذ الوحيد هو الانتظار. سأله المركيز:

«أهذا هو آخر ما تستطيع قوله لي؟».

فرد عليه الطبيب بالجفاء نفسه:

«لم يمنحني العلم من الوسائل ما يتيح لي قول المزيد. ولكن، إذا كنت لا تثق بي يبقى أمامك سبيل آخر: الثقة بالرب».

لم يفهم المركيز ما يعنيه، وقال له:

«كنت مستعداً لأن أقسم إنك ملحد».

فلم يلتفت الطبيب حتى لمجرد النظر إليه:

«وما الذي أريده أكثر من هذا يا سيدي».

لم يثق المركيز بالرب، وإنما بكل من كان يمنحه شيئاً من الأمل. كان في المدينة ثلاثة أطباء مجازين آخرين، وستة عشابين، وأحد عشر حلاقاً حجّاماً، وعدد لا حصر له من المداوين والعارفين بأساليب الشعوذة، على الرغم من أن محاكم التفتيش كانت قد حكمت على ألف وثلاثمئة منهم بأحكام مختلفة خلال السنوات الخمسين الأخيرة، وأعدمت ستة في المحرقة. طبيب شاب من سلمنكا أعاد فتح جرح سييرفا ماريا الملتئم

ووضع لها عليه لبخات كاوية لامتصاص الرطوبة القديمة. وحاول طبيب آخر الشيء نفسه بوضع علقات مصاصة دم في ظهرها. وقام حلاق حَجّام بغسل الجرح ببولها، بينما جعلها آخر تشربه. وبعد أسبوعين، كانت قد تحملت مغطسي أعشاب وحقنتين شرجيتين مليتين يومياً، وكانوا قد أوصلوها إلى حافة الاحتضار بمغلى الاثمد الطبيعي ومشروبات قاتلة أخرى..

تراجعت الحمى، ولكن أحداً لم يتجرأ على القول بأن أمر داء الكَلَب قد انتهى.. كانت سيرفا ماريا تشعر بأنها تموت. لقد صمدت أول الأمر بكبرياء تامة، ولكنها بعد أسبوعين لم يتم التوصل خلالهما إلى نتيجة، صارت لديها قرحة نارية في كعبها، وصار جلدها مجعداً بسبب لزقات الخردل والقروح، واهترأت معدتها. لقد مرت بكل شيء: دوار، اختلاجات، تشنجات، هذيان، انفلات في فضلات البطن والمثانة، وكانت تتمرغ على الأرض وتعوي من شدة الألم والغضب. لقد هجرها لمصيرها حتى أكثر المداوين جرأة موقنين بأنها مجنونة أو بها مس من الشياطين. وكان المركيز قد فقد كل أمل حين ظهرت ساغونتا ومعها مفتاح القديس هوبيرتو.

كانت تلك هي النهاية. فقد تعرت ساغونتا من ملاءاتها ودهنت نفسها بطلاء الهنود لكي تفرك جسدها بجسد الطفلة العارية. وقد تماسكت هذه الأخيرة بالاستناد على قدميها ويديها بالرغم من ضعفها المفرط، وأخضعتها سوغانتا بالقوة. سمعت بيرناردا من حجرتها الصيحات المخبولة. فهرعت لترى ما الذي يحدث، فوجدت سيرفا

ماريا ترفس على الأرض وساغونتا فوقها مغطاة بتموجات الشعر البرونزي وهي تصرخ مرددة صلوات القديس هوبيرتو. فراحت بيرناردا تجلد الاثنتين معاً بحبال أرجوحة النوم. جلدتهما أول الأمر وهما على الأرض منكمشتين على نفسيهما من صدمة المفاجأة، ثم لحقت بهما بعد ذلك وهما تلوذان بالزوايا إلى أن خمدت أنفاسها.

ذعر مطران الأسقفية، دون توريبيو دي كاثيريس اي بيرتوديس، من الفضيحة العامة التي سببتها اختلالات سييرفا ماريا وانحرافاتها. فأرسل إلى المركيز دعوة دون تحديد السبب ولا اليوم أو الساعة، وهو ما جرى تفسيره بأنه مسألة بالغة الأهمية. وقد تجاوز المركيز التردد وذهب في اليوم نفسه دون إشعار مسبق.

كان المطران قد تولى منصبه في الوقت الذي كان فيه المركيز قد اعتزل الحياة العامة، وكانا لا يكادان يلتقيان معاً، أضف إلى ذلك أن المطران كان رجلاً محكوماً بسوء حالته الصحية، له جسد ضخم يمنعه من الاعتماد على نفسه، ومنخوراً بربو خبيث يضع إيمانه موضع الاختبار. وكان قد تغيب عن عدد كبير من المناسبات العامة التي كان عدم حضورها أمراً لا يمكن تصوره، وأما في المناسبات القليلة التي حضرها، فكان يحتفظ بمسافة تفصله عن الآخرين، مما بدأ يحوله شيئاً فشيئاً إلى شخص غير واقعي.

كان المركيز قد رآه في بعض المناسبات، ولكن من بعيد وفي أماكن عامة على الدوام، أما ذكراه التي يحتفظ بها فقد كانت في قداس حضره المطران بعباءة مزركشة وهو فوق محفة يحملها أعيان من الحكومة. وبسبب

ضخامة جسده وأبهة زينته كان يبدو شيخاً هائلاً، ولكن الوجه المجرد من الملامح الدقيقة الخاصة، بعينيه الخضراوين الغريبتين، كان يحتفظ بوسامة سليمة بلا سن محددة. وكانت تحيط به على مستوى المحفة هالة سحرية وكأنه الحبر الأعظم، ومن عرفوه عن قرب أحسوا بذلك أيضاً في تألق حكمته ووعيه للسلطة.

القصر الذي كان يسكنه هو أقدم قصور المدينة، وكان مؤلفاً من طابقين فيهما فراغات فسيحة وخربة، ولم يكن المطران يشغل إلا أقل من نصف أحد الطابقين. كان القصر مجاوراً للكتدرائية، يتصل بها عبر رواق مشترك من أقواس داكنة، وفناء فيه بئر خرب وسط أجمة نباتات صحراوية. وحتى الواجهة الضخمة بأحجارها المنقوشة وبواباتها الخشبية ذات القطعة الواحدة، كانت تكشف عن أضرار الأهمال.

استقبل شماس هندي المركيز عند البوابة الرئيسية. وقد وزع المركيز صدقات ضئيلة على جماعات المتسولين الذين كانوا يزحفون بتذلل في الدهليز، ودخل إلى عتمة البيت البارد في الوقت الذي دوَّت فيه أجراس الكتدرائية الضخمة وترددت أصداء دويها في بطنه معلنة الرابعة مساء. كان الممر الأوسط مظلماً جداً حتى أنه تبع الشماس دون أن يراه، وكان يفكر في كل خطوة بألا يصطدم بتماثيل موضوعة في غير أماكنها أو بأنقاض تعترض طريقه. وفي نهاية الممر كانت هناك صالة انتظار صغيرة أفضل إضاءة من الممر لوجود كوة في سقفها. توقف الشماس هناك، وأشار إلى المركيز بأن يجلس لينتظر، ودخل هو من الباب المجاور. بقي المركيز واقفاً يتفحص صورة زيتية كبيرة على الجدار

الرئيسي لشاب عسكري بالزي الرسمي لفرسان الملك. ولم ينتبه إلى أنها صورة المطران في شبابه إلا بعد أن قرأ اللوحة النحاسية المثبتة على الإطار.

فتح الشماس الباب ليدعوه إلى الدخول، ولم يكن على المركيز أن يتحرك من مكانه ليرى المطران مرة أخرى، أكبر سناً مما هو عليه في الصورة بأربعين سنة. لقد كان أكبر وأضخم بكثير من كل ما يقال عنه، حتى وهو مثقل بالربو ومستنفد من الحر. كان يتعرق بغزارة ويتأرجح ببطء شديد في كرسي هزاز فيليبيني، ويهوّي بتثاقل بمروحة من سعف النخيل بينما جسده مائل إلى الأمام لكي يتنفس بصورة أفضل. كان ينتعل قبقاباً فلاحياً وثوباً خشناً من الكتان فيه أجزاء محكوكة من كثرة الغسل بالصابون. وكان فقره الصريح يلفت الانتباه منذ النظرة الأولى. لكن ما كان أكثر وضوحاً هو نقاء عينيه الذي لا يمكن فهمه إلا باعتباره امتيازاً من الروح. توقف عن تحريك الكرسي الهزاز فور رؤيته المركيز عند الباب، وأومأ إليه إيماءة ودودة بمروحته وهو يقول له:

«ادخل يا يغناثيو، إنك في بيتك».

مسح المركيز عرق راحتيه ببنطاله، واجتاز الباب فوجد نفسه على شرفة في الهواء الطلق تحت مظلة من أزهار الجريس الصفراء ونبتات السرخس المعلقة، حيث كانت تبدو أجراس كل الكنائس والسقوف الحمراء للبيوت الرئيسية، وأبراج الحمام الهاجعة بسبب الحر، والتحصينات العسكرية البارزة على خلفية السماء الزجاجية، والبحر الملتهب. مد المطران يد الجندي التي له بكل تعمد، وقبّل المركيز الخاتم.

لقد جعل الربو أنفاسه كبيرة وحجرية، وكانت عباراته مختلة بسبب زفرات في غير أوانها وسعال خشن وقصير، ولكن لم يكن هناك ما يؤثر على بلاغته. أقام على الفور تواصلاً سهلاً بالحديث عن تفاصيل دنيوية. فأحس المركيز الذي كان يجلس قبالته بالامتنان لتلك الديباجة المسلية والغنية والمسهبة، حتى فاجأتهما أجراس الساعة الخامسة. ولم تكن رنيناً بقدر ما كانت ارتجاجاً جعلت نور المساء يهتز وملأت السماء بحمائم مذعورة.

قال المطران:

«يا للفظاعة، إن كل ساعة تدوي في أحشائي مثل هزة أرضية».

فاجأ قوله المركيز، لأنه كان قد فكر في الشيء نفسه حين دقت أجراس الساعة الرابعة. وبدا ذلك للمطران توافقاً طبيعياً، فقال: «الأفكار ليست ملكاً لأحد». ثم رسم بإصبعه مجموعة دوائر متصلة في الفضاء، وأضاف:

«إنها تطير في الفضاء، مثل الملائكة».

دخلت راهبة خدمة وهي تحمل قارورة ذات أذنين فيها فواكه مقطعة مغمورة في نبيذ قوي، وطبقاً فيه ماء يتبخر ضمخ الجو برائحة طيبة. استنشق المطران البخار بعينين مغمضتين، وحين خرج من النشوة كان شخصاً آخر: سيداً مطلقاً لصلاحياته.

قال للمركيز:

«لقد جعلناك تأتي لأننا نعلم أنك بحاجة إلى الرب وتتظاهر بالسهو».

كان الصوت قد فقد رنينه الأرغني واستعادت العينان بريقهما الدنيوي. شرب المركيز نصف كأس النبيذ في جرعة واحدة لكي يسيطر على رنة صوته، وقال:

«لابد أن نيافتكم تعرفون أني أحمل أكبر مصيبة يمكن لكائن بشري أن يحملها»، ثم أضاف بمذلة مثيرة: «لقد تخليت عن الإيمان».

فرد المطران دون أن يفاجأ:

«نعلم ذلك يا بني. وكيف لن نعرفه!».

قال عبارته بشيء من السعادة، ذلك أنه هو أيضاً، حين كان حامل راية في جيش الملك في مراكش، فقد الإيمان وهو في العشرين من عمره وسط قعقعة إحدى المعارك، قال: «كانت القناعة الصاعقة بأن الرب لم يعد موجوداً». ولشدة ذعره آنذاك، أسلم نفسه لحياة العبادة والتكفير.

«إلى أن أشفق الرب عليّ ودلني إلى طريق الصواب» وانتهى إلى القول: «وهكذا فإن ما هو جوهري ليس كونك غير مؤمن، وإنما كون الرب مايزال مؤمناً بك. وهذا أمر لا ريب فيه، فهو الذي أضاء لنا السبيل باهتمامه غير المحدود لكي نقدم لك الفرج».

قال المركيز:

«كنت أريد أن أحمل بلواي بصمت».

فقال المطران:

«لقد أسأت تحقيق ذلك تماماً إذن. فقد أصبح سراً يصرخ به الجميع كون ابنتك المسكينة تتمرغ على الأرض ضحية اختلاجات فاحشة

وإطلاقها النباح في رطانة وثنية، أليست هذه كلها أعراض مؤكدة لوجود مس شيطاني؟».

ذعر المركيز:

«ما الذي تعنونه؟».

«للشيطان مراوغات عديدة جداً، وهو كثيراً ما يتخذ صورة داء نجس ليدخل إلى جسد بريء، وحين يصبح فيه، لا يمكن لقوة إنسانية أن تخرجه».

أوضح المركيز المداخلات الطبية القاسية لمعالجة عضة الكلب، ولكن المطران كان يجد على الدوام تفسيراً لصالحه. وسأل عما كان يعرفه جيداً دون ريب:

«هل تعرف من يكون ابرينونثيو».

قال المركيز:

«لقد كان أول طبيب رأى الطفلة».

فقال المطران:

«كنت أريد سماع ذلك بصوتك».

هز جرساً يدوياً يبقيه في متناول يده، فظهر في الحال قس في نحو الثلاثين من عمره، فكان ظهوره أشبه بظهور جني تحرر من قارورة. قدمه المطران على أنه الأب كايتانو ديلاورا، ولا شيء سوى ذلك، ثم دعاه للجلوس. كان يرتدي ثوباً بيتياً فضفاضاً بسبب الحر وقبقاباً مثل قبقاب المطران. كان متشدداً، شاحباً، له عينان حادتان، وشعر شديد السواد فيه

خصلة بيضاء فوق الجبهة. ولم تكن أنفاسه القصيرة ويداه المحموتان تبدو أنها أنفاس ويدا رجل سعيد.

سأله المطران:

«ما الذي نعرفه عن ابرينونثيو؟».

ولم يكن على الأب ديلاورا أن يفكر في الأمر:

«ابرينونثيو دي سابيريرا كاو»، قال ذلك وكأنه يتهجى الاسم، ثم توجه في الحال إلى المركيز: «هل انتبهت أيها السيد المركيز إلى أن كنيته الأخيرة تعني كلب في لغة البرتغاليين؟».

وواصل ديلاورا يقول إنه من غير المعروف، بصورة جازمة، إذا ما كان ذلك هو اسمه الحقيقي فعلاً. ووفقاً لما هو وارد في سجلات محاكم التفتيش فإنه يهودي برتغالي مطرود من شبه الجزيرة، وقد وفر له الحماية هنا حاكم كافأه لأنه عالج له مهرة بمياه توربَاكو المطهِّرة. تحدث عن وصفاته السحرية، وعن عجرفته حين يتكهن بالموت، وعن احتمال ممارسة اللواطة بالغلمان، وعن قراءاته الفاسقة، وعن حياته دون رب. ومع ذلك، فإن التهمة الوحيدة التي استطاعوا توجيهها إليه هي بعثه إلى الحياة خياطاً متخصصاً بالترقيع في جيتسيماني. وقد تم الحصول على أدلة جدية بأن الخياط كان مسجى في التابوت حين اقترب منه ابرينونثيو وأمره بالنهوض. ومن حسن حظه أن المبعوث حياً نفسه قد أكد أمام محكمة التفتيش أنه لم يفقد الوعي لحظة واحدة. «لقد أنقذه بذلك من المحرقة»، قال ديلاوراذلك، ثم ذكر أخيراً حادثة الحصان الميت في ربوة سان لاثارو، الذي جرى دفنه في مقبرة.

فقال المركيز متشفعاً:

«لقد كان يحبه مثل كائن بشري».

قال ديلاورا:

«إنها إهانة لديننا أيها السيد المركيز. وخيول عمرها مئة سنة ليست من أمور الرب».

ذعر المركيز لأن مزحة خاصة قد وصلت إلى محفوظات محكمة التفتيش. فحاول القيام بدفاع خجول: «إن ابرينونثيو شخص بذيء اللسان، ولكنني أعتقد بكل تواضع أن هناك فرقاً شاسعاً بين هذا وبين الهرطقة». وكان يمكن للجدال أن يصبح مريراً وبلا نهاية لو لم يتدخل المطران لإعادته إلى الوجهة التي فقدها.

«فليقل الأطباء ما يشاؤون قوله، لكن داء الكَلَب هو عادة إحدى مكايد العدو الكثيرة».

لم يفهم المركيز ذلك. فقدم له المطران شرحاً شديد الدراماتيكية بدا وكأنه مقدمة لإصدار حكم بالنار الأبدية.

وانتهى إلى القول:

«وبالرغم من أنه لم يعد بالإمكان استعادة جسد ابنتك، إلا أن الرب وفر لنا، لحسن الحظ، الوسائل لإنقاذ روحها».

كان عسف الغروب قد خيم على الدنيا. ورأى المركيز أول النجوم في السماء الخُبازية، ففكر بابنته، وحيدة في البيت المقرز، تجر قدمها التي أتلفتها شعوذات المداوين الكاذبة. سأل بتواضعه الطبيعي:

«وماذا يجب عليّ أن أفعل؟».

فشرح له المطران ذلك نقطة نقطة. وأعطاه صلاحية استخدام اسمه في كل معاملة يقوم بها، وخصوصاً في دير سانتا كلارا، حيث عليه أن يودع الطفلة بأسرع وقت ممكن. وانتهى قائلاً:

«دعها في أيدينا. والرب سيتكفل بالباقي».

ودعهما المركيز وهو أكثر غماً مما كان عليه عند مجيئه. تأمل من نافذة عربته الشوارع المخربة الكئيبة، والأطفال الذين يستحمون عراة في البرك الراكدة، والقمامة التي تبعثرها النسور. وعند المنعطف رأى البحر في مكانه دائماً، فداهمه إحساس بالتردد.

وصل إلى البيت الغارق في الظلام مع دقات صلاة البشرى، وللمرة الأولى منذ وفاة دونيا اولايا ردد تلك الصلاة بصوت عال: ملاك الرب بشر مريم. كانت أنغام أوتار التيوربا تتردد في الظلام كما في قعر بركة راكدة. تتبع المركيز اتجاه الموسيقى باللمس حتى وصل إلى غرفة نوم ابنته. كانت تجلس هناك على كرسي خوان الزينة وهي ترتدي رداء أبيض وشعرها محلول يصل حتى الأرض. وكانت تعزف تمريناً أولياً تعلمته منه. لم يستطع أن يصدق أنها هي نفسها التي تركها عند الظهر منهوكة من قسوة المداوين، اللهم إلا إذا كانت قد حدثت معجزة. كان ذلك وهماً آنياً. فما ان أحست سييرفا ماريا بمجيئه حتى توقفت عن العزف، وهوت في الكآبة من جديد.

رافقها طوال تلك الليلة. ساعدها في طقوس حجرة النوم ببلادة أبٍ مستعار. ألبسها قميص النوم بالمقلوب، فاضطرت إلى خلعه ولبسه بصورة صحيحة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها عارية، وقد

آلمه أن يرى أضلاعها بارزة تحت الجلد، ونهديها البرعميين، وزغبها الناعم، كانت تحيط بالكعب الملتهب هالة متوقدة. وبينما كان يساعدها على النوم، كانت الطفلة ماتزال تعاني على انفراد بأنين يكاد يكون غير مسموع، فاستولى عليه يقين بأنه يساعدها على الموت.

شعر بحاجة ملحة إلى الصلاة لأول مرة منذ فقدانه الإيمان. ذهب إلى المصلى، وبذل كل جهوده في محاولة استعادة الرب الذي تخلى عنه، ولكن دون جدوى: لقد كان الكفر أكثر رسوخاً من الإيمان لأنه يستند إلى الحواس. سمع الطفلة تسعل عدة مرات في برودة الفجر، فذهب إلى غرفة نومها. ولدى مروره رأى باب مخدع بيرناردا مواربا، فدفعه تحت وطأة الحاجة إلى مشاطرتها شكوكه. كانت تنام منبطحة على الأرض وتشخر شخيراً مدوياً. بقي المركيز واقفاً وهو يمسك مقبض الباب، ولم يوقظها. قال إلى لا أحد: «حياتكِ فداء لحياتها». ثم صحح ما قاله في الحال:

«حياتانا الخرائيتان فداء لحياتها، اللعنة!».

كانت الطفلة نائمة. رآها المركيز ثابتة وصامتة، فتساءل إذا ما كان يفضل رؤيتها ميتة أم خاضعة لعقوبة داء الكَلَب. أعاد ترتيب الكلّة حتى لا تفصد الخفافيش دمها، ودثرها حتى لا تواصل السعال، وبقي ساهراً إلى جوار السرير وهو يشعر بالمتعة الجديدة بكونه يحبها كما لم يحب أحداً في هذا العالم من قبل. وعندئذ اتخذ قرار حياته دون أن يتشاور بشأنه مع الرب أو مع أي كائن آخر. وعندما فتحت سييرفا ماريا

عينيها في الساعة الرابعة صباحاً، رأته جالساً إلى جوار سريرها.

قال المركيز:

«إنه موعد ذهابنا».

نهضت الطفلة دون مزيد من الشرح. ساعدها المركيز لكي تلبس ثياباً تليق بالمناسبة. بحث في الصندوق عن خف من المخمل حتى لا يضايق مسند الحذاء كاحلها، ووجد، دون أن يبحث عنه، فستان حفلات كان لأمه وهي طفلة. بدا متضرراً ومتسخاً بفعل الزمن، ولكن كان واضحاً أنه لم يستخدم مرتين. ألبسه المركيز لسييرفا ماريا، بعد قرن من صنعه تقريباً، فوق أطواق القداسة وعوذة العماد. كان الفستان ضيقاً عليها بعض الشيء، وقد زاد ذلك من قدمه بطريقة ما. وألبسها قبعة وجدها كذلك في الصندوق، ولم تكن لأشرطتها الملونة أي علاقة بلون الفستان. ولكن القبعة كانت على مقاسها بالضبط. وأخيراً، أعد لها حقيبة يد وضع فيها قميص نوم، ومشطاً متقارب الأسنان لإخراج حتى أصغر صئبان القمل، وكتاب صلوات صغير كان للجدة له مفصلات من الذهب وغلاف من الصدف.

كان اليوم هو يوم أحد السعف. أخذ المركيز سييرفا ماريا إلى صلاة الساعة الخامسة، وقد تلقت بحماسة السعفة المباركة دون أن تدري ما تفعله بها. وحين خرجا رأيا شروق الشمس من العربة. كان المركيز جالساً على المقعد الرئيسي وفوق ركبتيه الحقيبة الصغيرة، وكانت الطفلة جالسة برباطة جأش على المقعد المقابل وهي ترى من النافذة مرور آخر شوارع سنوات عمرها الاثنتي عشرة. لم تُبْدِ أدنى قدر من الفضول

لمعرفة المكان الذي يأخذونها إليه وهي ترتدي ملابس خوانا المجنونة(*) وقبعة الملكات في مثل تلك الساعة المبكرة. سألها المركيز بعد تأمل طويل:

«هل تعرفين من هو الرب؟».

فأنكرت الصغيرة بإيماءة من رأسها.

كانت هناك بروق ورعود نائية في الأفق، وكانت السماء غائمة والبحر هائجاً. وعند أحد المنعطفات برز أمامهما دير سانتا كلارا، أبيض ومتوحداً، ثلاثة طوابق ذات نوافذ زرقاء فوق مزبلة شاطىء. أشار المركيز إلى الدير بإصبعه السبابة وقال: «هذا هو». ثم أشار بعد ذلك إلى الجهة اليسرى: «سترين البحر في كل وقت من النافذة». ولأن الطفلة لم توله اهتماماً، فقد أطلعها على التفسير الوحيد الذي سيقدمه إليها حول مصيرها:

«ستستريحين بضعة أيام مع الأخوات الراهبات في سانتا كلارا».

ولأن اليوم كان أحد السعف، فقد كان عند البوابة الدوارة عدد من المتسولين أكثر من المعتاد. بعض المجذومين الذين كانوا يتنازعون معهم على فضلات المطبخ، بادروا كذلك إلى مد أيديهم نحو المركيز. فوزع عليهم صدقات زهيدة، صدقة لكل واحد، إلى أن انتهى ما يحمله من

---

* خوانا المجنونة (١٤٧٩ ــ ــ ١٥٥٥) ملكة قشتالة منذ عام ١٥٠٤ . ابنة فرناندو وايزابيل، وأم الملك كارلوس الخامس. أصيبت باضطراب عقلي لحزنها على وفاة زوجها دوق استوريا المعروف باسم فيليب الجميل. (المترجم).

الكوارتيات(*). رأته الراهبة البوابة بملابسه الحريرية السوداء، ورأت الطفلة بملابس الملكة، فشقت طريقها للاهتمام بهما. أوضح لها المركيز بأنه آت بسييرفا ماريا بأمر من المطران. فلم تشك الراهبة البوابة بذلك للطريقة التي تكلم بها. تفحصت مظهر الطفلة، ونزعت القبعة عن رأسها قائلة:

«القبعات ممنوعة هنا».

احتفظت بالقبعة في يدها. فأراد المركيز أن يعطيها الحقيبة الصغيرة أيضاً، ولكنها لم تأخذها:

«لن يلزمها أي شيء».

انحلت ضفيرتها المربوطة بصورة سيئة وكادت أن تلامس الأرض، لم تصدق الراهبة البوابة أنه شعر طبيعي. حاول المركيز أن يلف الضفيرة ثانية، فأبعدته الطفلة ورتبتها دون مساعدة بمهارة أذهلت الراهبة التي قالت:

«لابد من قص الشعر».

فقال المركيز:

«إنه منذور للعذراء المقدسة حتى يوم زفافها».

فاقتنعت الراهبة البوابة لهذا المبرر. أمسكت الطفلة من يدها ومرت بها عبر البوابة دون أن تتيح لها الوقت للوداع. ولأن كعب قدمها كان يؤلمها عند المشي، فقد خلعت الطفلة فردة خفها اليسرى. رآها المركيز

---

* الكوارتيات (كوارتو): عملة قديمة ضئيلة القيمة.

تبتعد وهي تعرُج على قدمها الحافية، والخف في يدها. انتظر دون جدوى لحظة شفقة نادرة تلتفت فيها لتنظر إليه. وكانت آخر ذكرى احتفظ بها عنها هي حين انتهت من اجتياز رواق الحديقة، مجرجرة قدمها المصابة، واختفت في جناح المدفونات على قيد الحياة.

ثلاثة

دير سانتا كلارا هو مبنى له شكل المربع يقوم قبالة البحر، مؤلف من ثلاثة طوابق لها نوافذ كثيرة متماثلة، ورواق أقواس نصف دائرية حول حديقة غير مشذبة وكئيبة. كان هناك طريق مرصوف بالأحجار تحف به نبتات موز وسرخس بري، ونخلة نخيلة نمت أعلى من السطوح بحثاً عن الضوء، وشجرة ضخمة تتعلق على أغصانها نبتات فانيليا وسلاسل من نبات السحلية. وتحت الشجرة كان هناك مستنقع مياه ميتة يحيط به سياج معدني صدىء حيث تؤدي الببغاوات الحبيسة حركات سيرك بلهوانية.

كانت الحديقة تقسم المبنى إلى كتلتين مختلفتين. إلى اليمين تقوم الطوابق الثلاثة للمدفونات على قيد الحياة، لا يكاد يزعجهن سوى لهاث تيار البحر عند جرف الشاطىء وصلوات وأناشيد ساعات الصلاة القانونية. وكانت هذه الكتلة تتصل بالكنيسة عبر بوابة داخلية، لكي تتمكن راهبات المحتبس من الدخول إلى الكورال دون المرور من الممر العام، وسماع الصلاة والإنشاد من وراء ستارة كالحصيرة تسمح لهن بالرؤية دون أن يراهن أحد. أما خشب بطانة السقف الثمين الرائع الذي يتكرر في زخارف متماثلة تغطي كل سموات الدير، فقد صنعه

حرفي اسباني كرَّس له نصف حياته مقابل أن ينال الحق بدفنه في أحد محاريب المذبح الأكبر. وقد كان محشوراً هناك، وراء ألواح المرمر، مع نحو قرنين من رئيسات الدير والمطارنة وأناس آخرين من الأعيان.

حين دخلت سيرفا ماريا إلى الدير كان في المحتبس المحرم اثنتان وثمانون راهبة اسبانية، جميعهن أنهين خدمتهن، وسبع وثلاثون راهبة محلية من الأسر الكبرى في الولاية. ومنذ أن نذرن أنفسهن للفقر والصمت والعفة، كان اتصالهن الوحيد مع الخارج يقتصر على الزيارات القليلة في حجرة تبادل الحديث ذات المشربيات الخشبية، حيث يمكن للصوت أن ينفذ منها ولكنّ الضوء لا يمكنه ذلك. وكانت الحجرة إلى جوار البوابة الدوارة، ويتم استخدامها بصورة منظمة ومقيدة وبحضور رقيبة على الدوام.

إلى يسار الحديقة كانت تقوم المدارس ومشاغل كل شيء، وكان ساكنوها كثيرين جداً ما بين راهبات مستجدات ومعلمات مهن حرفية. وكانت تقوم هناك دار الخدمة، وفيها مطبخ ضخم بمواقد حطب، ورواق للجزارة وفرن كبير لصنع الخبز. وفي العمق كان يوجد فناء موحل دائماً بسبب ماء الغسيل حيث كانت تعيش عدة أسر من العبيد، وأخيراً، كانت الاسطبلات، وحظيرة للماعز وأخرى للخنازير، وبستان الخضروات وخلايا النحل، حيث تجري تربية وزراعة كل ما تتطلبه الحياة الجيدة.

ووراء كل شيء، في المكان القصي الذي تخلت عنه يد الرب، كان يوجد بناء متوحد استخدم طوال ثمانية وستين عاماً كسجن لمحكمة

التفتيش، ومازال يستخدم سجناً للراهبات الكلاريات الضـالات. في الزنزانة الأخيرة من ذلك الركن المنسي، جرى حجز سييرفا ماريا بعد ثلاثة وتسعين يوماً من عض الكلب لها، ودون ظهور أي عارض من أعراض داء الكَلَب عليها.

الراهبـة البوابة التي اقتـادتها من يدها التقت في نهاية الممر براهبة مستجدة ذاهبة إلى المطبخ، فطلبت منها أن توصلها إلى رئيسة الدير. وقد فكرت المستجدة في أنه من غير اللائق أن تأخذ معها إلى فوضى جناح الخدمة تلك الطفلة شديدة النحول وحسنة الهندام، فتركتها جالسة على أحد مقاعد الحديقة الحجرية لكي تأخذها فيما بعد. ولكنها نسيتها حين عادت.

وقد مرت مستجدتان بعد ذلك وأبدينا اهتماماً بأطواقها وخواتمها، وسألتاها من تكون، فلم ترد. فسألتاها إذا كانت تعرف اللغة القشتالية، وكان ذلك كمن يكلم ميتاً.

فقالت المستجدة الأصغر سناً:

«إنها خرساء بكماء».

وقالت الثانية:

«أو إنها ألمانية».

وبدأت الأصغر سناً تعاملها وكأنها معطلة الحواس الخمس. فأفلتت لها ضفـيرة شعرها التي كانت ملفوفة على عنقهـا، وقاستهـا بالأشبار. «أربعة أشبار تقريباً»، قالت ذلك وهي موقنة من أن الطفلة لا تسمعها. أخذت تشعث لها شعرها، لكن سييرفا ماريا أخافتها بنظرتها. إلا أن

المستجدة حدَّقت فيها، ومدت لها لسانها، ثم قالت:

«لك عينا شيطان».

انتزعت منها خاتماً دون مقاومة، ولكن حين حاولت الثانية انتزاع الأطواق، تحولت إلى ما يشبه الأفعى ونهشت يدها في عضة فورية وصائبة. فهرعت المستجدة لتغسل الدم.

عندما أنشدوا الصلاة الثالثة، كانت سييرفا ماريا قد نهضت لكي تشرب من البركة. فارتعبت، وعادت إلى المقعد دون أن تشرب، ولكنها نهضت مرة أخرى حين أدركت أن تلك الأصوات هي إنشاد الراهبات. أزاحت خشارة الأوراق المتعفنة بضربة بارعة من يدها، وشربت من البركة حتى الارتواء دون أن تبعد الدويبات. ثم تبولت بعد ذلك وراء الشجرة وهي مقعية وممسكة بعصا ملساء لتدفع عن نفسها الحيوانات الجائرة والرجال المؤذين، مثلما علمتها دومينغا دي ادفيينتو.

بعد قليل، مرت عبدتان زنجيتان وتعرفتا على القلائد المقدسة، فكلمتاها بلغة اليوربا، وردت عليهما الطفلة متحمسة باللغة نفسها. ولأن أحداً لم يكن يعرف سبب وجودها هناك، فقد أخذتاها معهما إلى المطبخ المضطرب حيث استقبلها الخدم بصخب. عندئذ انتبه أحدهم إلى الجرح الذي في عقبها وأراد أن يعرف ما الذي جرى لها. فقالت: «لقد أحدثته لي أمي بسكين». أما من سألوها عن اسمها، فقد أعطتهم اسماً زنجياً: ماريا ماندينغا.

استعادت عالمها على الفور. فساعدت في ذبح جدي كان يقاوم الموت. ثم انتزعت عينيه وقطعت خصيتيه، وهي الأجزاء التي كانت

تحبها أكثر من سواها. لعبت لعبة الشيطان مع الكبار في المطبخ ومع الأطفـال في الفناء، وفازت على الجميع، غنت بلغة اليوربا والكونغو والمـاندينغـا، وحتى من لا يفهمون تلك اللغات كانوا يستمعون إليها بذهول، عند الغداء، تنـاولت طبقاً أعدته من خصيتي وعيني الجدي مقلية بشحم الخنزير ومتبلة ببهارات حريفة.

في تلك الساعة كان جميع من في الدير يعرفون أن الطفلة موجودة هناك، باستثناء رئيسة الدير خوسيفا ميراندا. كانت امرأة جافة ومتمرسة، لها عقلية ضيقة ورثتها عن أسرتها. وكانت قد تأهلت في بورغوس، في ظل محاكم التفتيش، ولكن موهبتها في إصدار الأوامر وصرامة أحكامها الخاطئة كانت تنبع من داخلها ومنذ الأزل. وكان لها نائبتان قديرتان، ولكنهما فائضتان عن الحاجة، لأنها كانت تتولى كل شيء بنفسها ودون مساعدة من أحد.

كان حقدها على الأبرشيـة المحـليـة قد بدأ قبـل نحو مئة سنة من ميلادها، وكان السبب الأول، كما هي الحال دائماً في نزاعات التاريخ الكبرى، هو خلاف بسيط في قضايا المال والاختصاصات بين الراهبات الكلاريات والمطران الفرنسيسكاني. وحيال عناد هذا الأخير، حصلت الراهبات على دعم الحكومة المدنية، وكانت تلك بداية حرب وصلت لأن تكون في أحد الأوقات حرب الجميع ضد الجميع.

وبدعم من طوائف أخرى، فرض المطران على الدير حالة حصار لاجباره على الاستسلام جوعاً، وأصدر أمر الـ Cessatio a Divinis، أي: وقف جميع الطقوس الدينية في المدينة حتى إشعار آخر. فانقسـم

الأهالي إلى فئات، وجرت مواجهة بين السلطات المدنية والدينية بدعم من فئة أو أخرى. ومع ذلك، فقد بقيت الراهبات الكلاريات على قيد الحياة وفي حالة تأهب للحرب بعد انقضاء ستة شهور على الحصار، إلى أن تم اكتشاف نفق سري كان أنصارهن يمدونهن بالمؤن من خلاله. فانتهك الفرنسيسكانيون حينذاك حرمة سانتا كلارا بدعم من الحاكم الجديد وشتتوا شمل الراهبات.

لقد تطلبت تهدئة الخواطر وإعادة الدير المهدم إلى الراهبات الكلاريات انقضاء عشرين سنة، ولكن خوسيفا ميراندا مازالت بعد مرور قرن على الأحداث تقلّب أحقادها على نار هادئة. لقد لقنتها إلى راهباتها المستجدات، ورسختها في أحشائهن أكثر مما رسختها في قلوبهن، وجسدت كل خطايا منشئها في المطران دي كاثيريس اي بيرتوديس وفي كل من له علاقة به، ولهذا، فقد كانت ردة فعلها متوقعة حين أخبروها، من طرف المطران، أن مركيز كالسدويرو قد أحضر إلى الدير ابنته ذات الاثني عشر عاماً التي تحمل أعراض مس شيطاني قاتل. فوجهت سؤالاً واحداً فقط: «ولكن، هل هنالك وجود لمثل هذا المركيز؟» وقد كان في السؤال سماً مزدوجاً، لأن المسألة كانت متعلقة بالمطران، ولأنها كانت تنكر على الدوام شرعية ألقاب النبلاء المحليين الذين كانت تسميهم «نبلاء الأرياف».

حتى ساعة الغداء لم تكن قد تمكنت من العثور على سييرفا ماريا في الدير. كانت الراهبة البوابة قد أخبرت إحدى نائبتي الرئيسة بأن رجلاً يرتدي ثياب الحداد قد سلمها عندَ الفجر طفلة شقراء ترتدي ثياب

ملكة، ولكنها لم تستفسر أي شيء عنها لأن المتسولين كانوا يتنازعون في تلك اللحظة بالذات على حساء دقيق اليكة الذي يقدم لهم في يوم أحد السعف. وكدليل على أقوالها قدمت لها القبعة ذات الشرائط الملونة. وقد عرضت النائبة القبعة على رئيسة الدير أثناء بحثهم عن الطفلة، ولم يراود رئيسة الدير أي شك بمن تكون صاحبة القبعة. فتناولتها برؤوس أصابعها وأبعدتها على طول ذراعها قائلة:

«إنها آنسة بكل معنى الكلمة وبقبعة فتاة قذرة. إن الشيطان يعرف ما يفعله».

كانت قد مرت بالقرب منها في الساعة التاسعة صباحاً وهي في طريقها إلى حجرة المقابلات، وقد توقفت في الحديقة لتتجادل مع البنائين حول أسعار منشأة للماء، ولكنها لم ترَ الطفلة الجالسة على المقعد الحجري. كما لم يرها عدد من الراهبات الأخريات اللواتي مررن من هناك عدة مرات. أما الراهبتان اللتان انتزعتا منها الخاتم، فقد أقسمتا بأنهما لم ترياها عند مرورهما من هناك بعد صلاة الثالثة.

كانت رئيسة الدير قد أنهت قيلولتها للتو حين سمعت غناء منفرداً ملأ جو الدير. شدت الحبل المتدلي إلى جوار سريرها، فظهرت راهبة مستجدة في عتمة الغرفة على الفور. سألتها رئيسة الدير عمن يغني بمثل هذه الهيمنة، فقالت المستجدة:

«إنها الطفلة».

فدمدمت رئيسة الدير التي مازالت ناعسة: «ياللصوت الجميل». ثم قفزت في الحال:

«أي طفلة تعنين!».

فقالت المستجدة:

«لست أدري، إنها طفلة تقيم الفناء الخلفي وتقعده منذ الصباح».

فصرخت رئيسة الدير:

«أيها السر القدسي!».

قفزت من السرير. واجتازت الدير طيراناً، ووصلت إلى فناء الخدمات يقودها الصوت. كانت سييرفا ماريا تغني وهي جالسة على مقعد صغير وشعرها ممدود على الأرض، وسط الخدم المفتونين. وما إن رأت رئيسة الدير حتى توقفت عن الغناء. رفعت رئيسة الدير الصليب المعلق في عنقها وقالت:

«يا مريم العذراء الطاهرة».

فردد الجميع:

«يا من حبلت دون خطيئة».

أشهرت رئيسة الدير الصليب مثل سلاح حربي في مواجهة سييرفا ماريا، وصرخت: «vade retro»(*). فتراجع الخدم تاركين الطفلة وحدها في مجالها وهي ثابتة النظرة ومحترسة.

صرخت رئيسة الدير:

«يا نسل الشيطان. لقد جعلت نفسك غير مرئية لكي تخدعيني».

---

* باللاتينية في الأصل، وهي اختصار لعبارة (vade retro, satana) أي: تراجع أيها الشيطان. (المترجم).

لم يتمكنوا من جعلها تنطق كلمة واحدة. أرادت راهبة مستجدة أن تقتادها من يدها، ولكن رئيسة الدير منعتها بذعر، وصرخت: «لا تلمسيها». ثم صاحت بالجميع:

«لا أحد يمسها».

ثم انتهى بهم الأمر إلى اقتيادها بالقوة إلى الزنزانة الأخيرة في جناح السجن، بينما هي ترفس وتعض الهواء بأسنان كلب. وفي الطريق انتبهوا إلى أنها ملوثة بفضلاتها، فغسلوها بدلاء من الماء في الإسطبل.

قالت رئيسة الدير متذمرة:

«مع وجود كل هذه الأديرة في المدينة، السيد المطران يرسل إلينا أكياس القمامة».

كانت الزنزانة واسعة، جدرانها خشنة وسقفها عالٍ جداً، وكانت في خشب السقف خطوط متفرعة من صنع النمل الأبيض. وإلى جوار الباب الوحيد كانت توجد نافذة بطول قامة الإنسان تتخللها قضبان من خشب مخروط، وكان مصراعاها مقفلين بمزلاج حديدي. وفي الجدار الداخلي المواجه للبحر، كانت هناك نافذة أخرى عالية ومختومة بعوارض خشبية. أما السرير فكان مصطبة من الملاط عليها فرشة من الكتان مملوءة بالقش ومتسخة من الاستخدام. وكانت هناك مصطبة للجلوس وطاولة من الحجر والطين تستخدم كمذبح ومغسل في الوقت نفسه، تحت مصلوب متوحد مسمر على الجدار. هناك تركوا سييرفا ماريا، مبللة حتى ضفيرتها ومرتعشة من الخوف، برعاية حارسة مدربة من أجل كسب الحرب الأزلية ضد الشيطان.

جلست سييرفا ماريا على الفراش وهي تنظر إلى القضبان الحديدية في الباب المصفح. وهكذا وجدتها الخادمة التي حملت لها طبق وجبة العصر في الساعة الخامسة مساء. لم تتأثر، حاولت الخادمة أن تنتزع منها الأطواق، فأمسكتها من معصمها وأجبرتها على إفلات عقودها. وفي تقارير الدير التي بدأت تُرفع منذ تلك الليلة، قالت الخادمة إن قوة من العالم الآخر قد طرحتها أرضاً.

بقيت الطفلة دون حراك إلى أن أُغلق الباب وسمعت قعقعة السلسلة ودوران المفتاح مرتين في القفل. ثم نظرت عندئذ إلى ما عليها أن تأكله: فضلات كالرماد، وقرص عجة من دقيق اليكة وفنجان شيكولاتة. قضمت العجة، مضغتها ثم بصقتها. انبطحت على الفراش. سمعت لهاث البحر، ورياح الماء، وأول رعود نيسان وهي تدنو أكثر فأكثر. وفي فجر اليوم التالي، حين عادت الخادمة وهي تحمل الفطور، وجدتها نائمة فوق كومة قش الفرشة التي مزقتها بأسنانها وأظفارها.

في ساعة الغداء تركتهم يقودونها بالحسنى إلى قاعة أكل المقيمات غير المنذورات لمحتبس الراهبات المحرم. كانت القاعة واسعة لها سقف على شكل عقد مرتفع ونوافذ كبيرة يدخل منها ضوء البحر صارخاً ويُسمع هدير جروف الشاطىء قريباً جداً. عشرون راهبة مستجدة، معظمهن صغيرات السن، كن يجلسن حول صفين من الموائد الخشنة. وكن يرتدين مسوحاً من نسيج صوفي عادي وكانت رؤوسهن حليقة. كن سعيدات بلهاوات، ولم يخفين انفعالهن لكونهن يأكلن وجبة الثكنة

اليومية على الطاولة نفسها مع ممسوسة.

كانت سييرفا ماريا تجلس بالقرب من الباب الرئيسي، بين حارستين ساهيتين، وكانت لا تكاد تتذوق الطعام. كانوا قد ألبسوها مسوحاً مثل مسوح المستجدات، وكان خفها مايزال مبللاً. لم ينظر إليها أحد أثناء تناولهن الطعام، ولكن عدداً من المستجدات أحطن بها في النهاية ليعربن عن إعجابهن بخرز أطواقها. وحاولت إحداهن انتزاع تلك الأطواق من عنقها، فجمحت سييرفا ماريا، وأطاحت بعيداً بدفعة واحدة بالحارستين اللتين حاولتا السيطرة عليها. ثم صعدت فوق الطاولة وراحت تركض عليها من طرف إلى آخر وهي تصرخ مثل ممسوسة حقيقية. كسرت كل ما واجهته في طريقها، وقفزت من النافذة وأتلفت مساكب الخضروات في الفناء، وهيجت خلايا النحل، وأسقطت حواجز الاسطبلات وأسيجة الحظائر، فتفرق النحل وجفلت المواشي ودخلت وهي تصيح حتى إلى غرف النوم في منطقة المحتبس المحرمة.

لم يحدث أي شيء منذ ذلك الحين إلا ونُسب إلى سحر سييرفا ماريا الخبيث. عدة راهبات مستجدات قلن في المحاضر إنها تطير بأجنحة شفافة يصدر عنها أزيز سحري. وقد احتاجوا ليومين وفصيلة من العبيد لكي يعيدوا المواشي إلى الحظائر ويقودوا النحل إلى خلاياه ويعيدوا ترتيب البيت. وانتشرت إشاعة تقول إن الخنازير قد تسممت، وإن المياه صارت تسبب رؤى وبائية، وإن إحدى الدجاجات المذعورة قد طارت فوق السطوح واختفت في الأفق البحري. ولكن رعب الراهبات كان متناقضاً، فعلى الرغم من مبالغات رئيسة الدير في الخوف، وذعر

كل واحدة منهن، إلا أن زنزانة سييرفا ماريا تحولت إلى مركز فضولهن جميعاً.

كان حظر التجول في محتبس الراهبات يسود منذ الانتهاء من ترتيل صلاة الغسق، في الساعة السابعة ليلاً، ويستمر حتى بدء صلاة الساعة السادسة صباحاً. وكانت الأضواء تُطفأ ولا يبقى منها إلا أضواء بضع غرف مسموح لها بذلك. ولكن، لم يحدث على الإطلاق أن عمت الفوضى والتحرر حياة الدير مثلما حدث آنذاك. كانت هناك حركة مرور أشباح في الممرات، وهمسات متقطعة وجزع مكبوت. وكانت تجري في الحجرات التي لا تخطر في البال ألعاب بأوراق الشدّة الاسبانية أو الزهر، وتناول الخمور خفية وتدخين لفائف السيجار التي يتم لفها سراً مذ منعت خوسيفا ميراندا تدخينها داخل منطقة المحتبس المحرمة. فوجود طفلة ممسوسة في الدير كان له سحر المغامرة الجديدة.

وحتى أكثر الراهبات تزمتاً كن يهربن من المحتبس بعد حظر التجول، ويذهبن في جماعات من ثلاث راهبات أو راهبتين للتحدث مع سييرفا ماريا التي كانت تستقبلهن بأظفارها. ولكنها سرعان ما تعلمت التحكم بهن حسب مزاج كل واحدة وكل ليلة. وكانت إحدى رغباتهن المتواترة هي أن تكون وسيطة بينهن وبين الشيطان ليطلبن منه خدمات مستحيلة. فكانت سييرفا ماريا تقلد أصوات ساكني القبور، وأصوات المذبوحين، وأصوات المسوخ الشيطانيين، وقد صدَّقت كثيرات منهن حيلها وأوردنها كحقائق مؤكدة في المحاضر. وفي ليلة مشؤومة داهمت الزنزانة عصبة راهبات يرتدين ملابس الرجال، فقمن بكم فم سييرفا

ماريا وانتزعن منها أطواقها المقدسة، كان انتصاراً سريع الزوال. ففي هروبهن المتعجل، انزلقت قدم قائدة الاعتداء على السلالم المظلمة وأصيبت بكسر في جمجمتها. ولم تشعر رفيقاتها بلحظة سلام واحدة إلى أن أعدن الأطواق المسروقة. ولم يعد هناك من يزعج ليالي الزنزانة.

لقد كانت أيام حداد بالنسبة لمركيز كاسالدويرو. وكان تأخره في إدخال الطفلة إلى الدير أكبر من ندمه على مساعيه بهذا الشأن، وعانى غيبوبة كآبة لم يتخلص منها إلى الأبد. لقد طاف عدة ساعات حول الدير متسائلاً في أي واحدة من نوافذه التي لا حصر لها تجلس سييرفا ماريا مفكرة فيه. حين رجع إلى البيت رأى بيرناردا في الفناء تتلقى برودة أول الليل. وقد هزته نبوءة أنها ستسأله عن سييرفا ماريا، ولكنها لم تكد تنظر إليه.

أفلت الكلاب واستلقى في أرجوحة النوم في مخدعه وهو يأمل بنوم أبدي. ولكنه لم يتوصل إليه. فهبات الرياح المدارية كانت قد انقضّت وكانت الليلة ملتهبة الحر. كانت المستنقعات تبعث بكل أنواع الدويبات الذاهلة من الحر الشديد، وبأسراب من البعوض الجارح، فكان لابد من إحراق روث البقر في غرف النوم لإبعاد البعوض. كانت الأرواح غارقة في السبات. وكان انتظار المطر الأول في السنة يجري آنذاك بلهفة كبيرة لا تقل عن تلك اللهفة في توسل انقطاعه إلى الأبد بعد ستة شهور من ذلك.

ما كاد الفجر يبزغ حتى ذهب المركيز إلى بيت ابرينونثيو. ولم يكن قد جلس بعد حين أحس مسبقاً براحة عظيمة لوجود من يشاطره الألم.

وقد بدأ الحديث في القضية دون مقدمات:

«لقد أودعت الطفلة في دير سانتا كلارا».

لم يفهم ابرينونثيو ما يعنيه، وانتهز المركيز فرصة ارتباكه ليوجه الضربة التالية، فقال:

«سيعزمون عليها لطرد الشيطان منها».

تنفس الطبيب بعمق وقال بهدوء مثالي:

«أخبرني بكل شيء».

حينئذ حدثه المركيز عن زيارته للمطران، وتلهفه إلى الصلاة، وقراره الأعمى، وليلته التي أمضاها ساهراً. لقد كان ذلك استسلام مسيحي عجوز لم يحتفظ بسر واحد لإرضاء نفسه.

وانتهى قائلاً:

«إنني مقتنع بأن ذلك كان تدبيراً من الرب».

فقال ابرينونثيو:

«أتعني أنك استعدت الإيمان».

قال المركيز:

«المرء لا يتخلى عن الإيمان بالكامل على الإطلاق. فالريبة راسخة».

فهمه ابرينونثيو. فقد كان يفكر على الدوام بأن التخلي عن الإيمان يسبب ندبة لا تنمحي في المكان الذي كان الإيمان يستقر فيه، وتحول دون نسيانه. ولكن ما بدا له غير مفهوم هو إخضاع المركيز لابنته إلى عقوبة التعزيم. فقال:

«ليس هناك فرق كبير بين هذا وبين شعوذات الزنوج. بل إنه أسوأ، لأن الزنوج لا يتعدون تقديم قرابين من الدجاج إلى آلهتهم، بينما تستمتع محاكم التفتيش بتمزيق أجساد الأبرياء على آلة التعذيب أو شيّهم أحياء في استعراض عام».

وقد بدت له مشاركة المونسينيور كايتانو ديلاورا في المقابلة مع المطران نذير شؤم. «إنه جلاد»، قال ذلك دون مواربة. واسترسل في تعداد ضليع لممارسات قديمة قامت بها محاكم التفتيش ضد مصابين بأمراض عقلية جرى إعدامهم على أنهم ممسوسون أو هراطقة. وانتهى إلى القول:
«لو أنك قتلتها لكان عملك أكثر مسيحية من دفنها وهي حية على ما أعتقد».

رسم المركيز إشارة الصليب. فنظر إليه ابرينونثيو، ورآه مرتعشاً وشبحياً بثيابه الحريرية الحدادية، ورأى في عينيه من جديد حباحب التردد التي ولدت معه. فقال له:
«أخرجها من هناك».

قال المركيز:
«هذا ما أريده منذ رأيتها تمشي نحو جناح المدفونات على قيد الحياة. ولكنني أشعر بأنني لا أملك القوة لمعارضة إرادة الرب».

قال ابرينونثيو:
«ابق جالساً إذن. ربما سيشكرك الرب يوماً».
في تلك الليلة بالذات، تقدم المركيز بطلب للقاء مع المطران. كتب

الطلب بخط يده، بصيغة مضطربة وخط طفولي، وسلمه بنفسه إلى الحاجب ليتأكد من أن الطلب سيصل إلى المرسل إليه.

في يوم الإثنين تم إخطار المطران بأن سييرفا ماريا أصبحت جاهزة للتعزيم. كان قد انتهى من تناول وجبة العصر في شرفته ذات أزهار الجريس الصفراء، ولم يول الرسالة اهتماماً خاصاً. كان يأكل قليلاً، ولكنه يفعل بتأن شديد يمكنه أن يطيل طقوس تناول الطعام إلى ثلاث ساعات. وكان الأب كايتانو ديلاورا يجلس قبالته ويقرأ له بصوت مستقر تماماً وبأسلوب فيه شيء من التمثيل. وهو ما يتلاءم مع الكتب التي يختارها هو نفسه انسجاماً مع ذوقه ووجهة نظره.

لقد كان القصر القديم كبيراً جداً بالنسبة للمطران الذي يكتفي بصالة استقبال الزوار وحجرة النوم، وبالشرفة غير المسقوفة حيث ينام قيلولته ويتناول طعامه حتى بدء موسم الأمطار. وفي الجناح المقابل من القصر كانت تقوم المكتبة الرسمية التي أسسها كايتانو ديلاورا وأغناها واعتنى بها بيد ماهرة. وقد كانت في عصرها من أفضل مكتبات الهند الغربية. أما بقية المبنى فكان يضم إحدى عشرة حجرة مغلقة، تتجمع فيها أنقاض قرنين ماضيين.

وباستثناء الراهبة المناوبة التي تقدم الطعام، كان كايتانو ديلاورا هو الشخص الوحيد المسموح له بالدخول إلى بيت المطران أثناء وجبات الطعام، وليس ذلك جزءاً من امتيازاته الشخصية، كما كان يقال، وإنما

لجدارته كقارىء. لم يكن له أي منصب محدد، ولا أي لقب سوى خازن المكتبة، ولكنه كان يعتبر في الواقع بمثابة نائب المطران بسبب قربه منه. ولم يكن هناك من يتصور أن المطران يقدم على اتخاذ أي قرار مهم دون التشاور معه. كانت له حجرة خاصة في بيت مجاور يتصل من الداخل بالقصر، وفي ذلك البيت كانت مكاتب وغرف موظفي الأبرشية ونحو ست راهبات يقمن بالخدمة المنزلية في بيت المطران. ولكن بيته الحقيقي مع ذلك كان في المكتبة، حيث كان يعمل ويقرأ لمدة تصل إلى أربع عشرة ساعة يومياً، وحيث كان يملك سريراً صغيراً ينام عليه حين يغلبه النعاس.

الشيء الجديد الذي حدث في ذلك المساء التاريخي هو تلعثم ديلاورا عدة مرات في القراءة. والأكثر غرابة من ذلك أنه تجاوز صفحة بالخطأ وواصل القراءة دون أن ينتبه إلى ذلك. راقبه المطران من خلال نظارته الصغيرة جداً كنظارة الخيماوي إلى أن انتقل إلى الصفحة التالية. عندئذ قاطعه مداعباً:

«ما الذي تفكر فيه؟».

ذعر ديلاورا وقال:

«لابد أنه الحر الشديد، لماذا؟».

واصل المطران النظر إلى عينيه وقال له: «لابد أنه أمر أكثر من الحر» وكرر بالنبرة نفسها: «بماذا كنت تفكر؟».

فقال ديلاورا:

«كنت أفكر في الطفلة».

لم يجدد أي طفلة، ذلك أنه لم تكن هناك طفلة أخرى في الدنيا منذ زيارة المركيز. لقد تحدثا عنها كثيراً. وراجعا معاً أخبار الممسوسين ومذكرات القديسين الرقائين. تنهد ديلاورا:

«لقد رأيتها في الحلم».

سأله المطران:

«كيف يمكنك أن ترى في الحلم شخصاً لم تره مطلقاً من قبل؟».

قال:

«لقد كانت مركيزة محلية صغيرة في الثانية عشرة، لها شعر طويل تجره وراءها مثل أذيال عباءة ملكية. فكيف يمكن أن تكون واحدة غيرها؟».

لم يكن المطران رجل رؤى سماوية. ولا معجزات ولا مراقبات صارمة. لقد كانت مملكته من هذا العالم. لذا، هز رأسه دون اقتناع، وواصل تناول الطعام. عاد ديلاورا إلى متابعة القراءة، ولكن بحذر أشد. وعندما انتهى المطران من الأكل، ساعده ديلاورا في الجلوس على الكرسي الهزاز. وبعد أن استقر المطران بارتياح قال:

«اروِ لي الحلم الآن».

كان حلماً بسيطاً جداً. فقد رأى سييرفا ماريا جالسة قبالة نافذة تطل على حقل مغطى بالثلج وهي تأكل حبة عنب بعد أخرى تنتزعها من عنقود في حضنها. وكلما انتزعت حبة كانت تظهر في العنقود واحدة مكانها في الحال. وكان واضحاً في الحلم أن الطفلة قد أمضت سنوات

طويلة قبالة تلك النافذة اللانهائية وهي تحاول إنهاء العنقود دون تعجل، لأنها تعلم أن الموت سيأتيها مع الحبة الأخيرة.

وانتهى ديلاورا قائلاً:

«وأغرب ما في الأمر هو أن النافذة التي كانت تطل منها على الحقل هي النافذة نفسها التي كانت في سلمنكا، في ذلك الشتاء الذي توالى هطول الثلج فيه ثلاثة أيام ونفقت الخراف مختنقة تحت الثلج».

تأثر المطران كثيراً. فقد كان يعرف كايتانو ديلاورا ويحبه كثيراً بحيث يمكنه تجاهل ألغاز أحلامه. والمكانة التي يحتلها، سواء في الأبرشية أو في عواطف المطران، اكتسبها عن جدارة بمواهبه الكثيرة وجودة جبلته. أغمض المطران عينيه لينام دقائق قيلولته المسائية الثلاث.

وفي أثناء ذلك، أكل ديلاورا على المائدة نفسها، قبل أن يصليا معاً صلاة الليل، لم يكن قد انتهى من تناول الطعام حين تمطى المطران في الكرسي الهزاز واتخذ قرار حياته:

«تولَّ أنت مسؤولية القضية».

قال ذلك دون أن يفتح عينيه وأطلق شخير أسد. انتهى ديلاورا من الأكل وجلس على كرسيه المعتاد تحت النبتة المتسلقة ذات الأزهار المتفتحة. عندئذ فتح المطران عينيه وقال له:

«لم ترد عليّ».

فقال ديلاورا:

«ظننتك تقول ذلك وأنت نائم».

قال المطران:

«وها أنذا أقوله الآن وأنا مستيقظ. إنني أكلفك بتولي صحة الطفلة».

فقال ديلاورا:

«هذا أغرب ما حدث لي على الإطلاق».

«أتريد أن تقول إنك غير موافق؟».

قال ديلاورا:

«لست راقياً يا أبتاه. ولست أملك الطبع ولا التكوين ولا المعلومات التي تؤهلني لمحاولة ذلك. ونحن نعلم أيضاً أن الرب قد خصص لي طريقاً آخر».

وقد كان الأمر كذلك حقاً. فبفضل مساع بذلها المطران، كان ديلاورا ضمن قائمة من ثلاثة مرشحين نهائيين لتولي منصب القيّم على قسم المؤلفات السفاردية في مكتبة الفاتيكان. ولكنها كانت المرة الأولى التي يذكران هذا الأمر فيما بينهما، على الرغم من معرفة كليهما به.

قال المطران:

«هذا سبب آخر أيضاً. فإنهاء قضية الطفلة بصورة جيدة يمكن له أن يكون الدفعة التي نحتاجها».

كان ديلاورا مدركاً لبلادته في التفاهم مع النساء. فقد كان يبدو له أنهن مزودات بقدرة ثابتة على استخدام العقل للإبحار دون تعثر وسط صروف الواقع. وكان مجرد التفكير بالالتقاء، حتى مع مخلوقة عزلاء مثل سييرفا ماريا، يجمد العرق في راحتيه.

قال بتصميم:

«لا يا سيدي. أشعر بأنني غير قادر على ذلك».

فرد المطران:

«لست قادراً وحسب، بل أنت تملك كذلك قدراً كبيراً من شيء يفتقر إليه الآخرون: الإلهام».

لقد كانت كلمة كبيرة جداً بحيث لا يمكن لها إلا أن تكون الأخيرة. ومع ذلك، لم يهدده المطران لأخذ موافقته الفورية وإنما منحه وقتاً ليفكر في الأمر إلى ما بعد اسبوع الجمعة الحزينة الذي بدأ في ذلك اليوم بالذات.

قال له:

«اذهب لرؤية الطفلة. ادرس القضية بعمق وأخبرني برأيك».

وهكذا كان أن دخل كايتانو الثينو دل اسبيريتو سانتو ديلاورا آي اسكوديرو حياة سييرفا ماريا وتاريخ المدينة وهو في السادسة والثلاثين من عمره. لقد كان فيما مضى تلميذاً للمطران حين كان هذا الأخير أستاذ كرسي شهير لمادة اللاهوت في سلمنكا، وقد تخرج من هناك بأعلى التشريفات على دفعته. كان مقتنعاً بأن أباه ينحدر مباشرة من غارثيلاسو دي لا فيغا الذي يكن له تقديساً شبه ديني يعلن عنه على الفور. كانت أمه مولدة محلية من سان مارتين دي لوبا، في مقاطعة مومبوكس، هاجرت إلى اسبانيا مع والديها. ولم يكن ديلاورا يعتقد بأنه ورث أي شيء عنها إلى أن جاء إلى مملكة غرناطة الجديدة وتعرف إلى حنينه الموروث.

منذ حديثه الأول معه في سلمنكا، أحس المطران دي كاثيريس آي بيرتوديس أنه أمام إحدى تلك القيم النادرة التي تزين مسيحية عصرها.

كان ذلك في صباح شباطي متجمد، وكانت تبدو من خلال النافذة الحقول المغطاة بالثلج ويظهر في أقصى المشهد صف أشجار حور عند النهر. ذلك المنظر الشتائي سيكون إطار حلم متواتر سيلاحق اللاهوتي الشاب طوال ما تبقى من حياته.

كان حديثهما عن الكتب بالطبع، ولم يستطع المطران أن يصدق أن ديلاورا قد قرأ كل تلك القراءات الكثيرة وهو في سنه تلك. حدَّثه ديلاورا عن غارثيلاسو. فاعترف له المعلم بأنه يعرفه قليلاً، ولكنه يتذكره كشاعر وثني لا يذكر الرب إلا مرتين في أعماله كلها.

قال ديلاورا:

«ليس بمثل هذه القلة. ولكن ذلك لم يكن نادر الحدوث حتى بين كاثوليكيي عصر النهضة الصالحين».

في اليوم الذي قدم فيه نذوره الأولى، اقترح عليه المعلم أن يرافقه إلى مملكة يوكاتان الغامضة التي عُيّن للتو مطراناً لها. ولكن ديلاورا الذي يعرف الحياة من خلال الكتب، كان يرى في عالم أمه الفسيح حلماً لن يكون له على الإطلاق. كان من الصعب عليه تخيل الحر الخانق ورائحة النتانة الأبدية والمستنقعات المدخنة في الوقت الذي كان يُخرج فيه الخراف المتجمدة من تحت الثلوج. أما المطران الذي شارك في حروب افريقيا، فقد كان يسهل عليه تصور ذلك.

قال ديلاورا:

«لقد سمعت أن رهباننا يجنون من السعادة في لاس اندياس».

فقال المطران:

«وبعضهم يشنقون أنفسهم، إنها مملكة مهددة باللواطة والوثنية وأكل اللحم البشري». ثم أضاف دون دراية:

«مثل أرض العرب».

ولكنه كان يفكر بأن ذلك كله هو سبب جاذبيتها الكبرى. فتلك البلاد بحاجة إلى محاربين قادرين على فرض محاسن الحضارة المسيحية كقدرتهم على التبشير في الصحراء. ومع ذلك، فقد كان ديلاورا، وهو في الثالثة والعشرين من عمره آنذاك، يعتقد أن طريقه سالك حتى يمين الروح القدس الذي يخلص له إخلاصاً مطلقاً.

قال:

«لقد حلمت طوال حياتي بأن أكون مكتبياً كبيراً. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أنفع فيه».

كان قد شارك في المسابقة على وظيفة في طليطلة تضعه على طريق تحقيق حلمه، وكان واثقاً من أنه سيفوز بذلك المنصب. ولكن المعلم كان عنيداً، فقال له:

«من الأسهل عليك أن تصبح قديساً وأنت خازن مكتبة في يوكاتان مما لو كنت شهيداً في طليطلة».

فردّ ديلاورا دون تذلل:

«إذا أنعم الرب عليّ بفضله، فإنني لا أرغب في أن أكون قديساً وإنما ملاكاً».

لم يكن قد انتهى من التفكير بعرض معلمه حين جرى تعيينه في طليطلة، ولكنه فضَّل الذهاب إلي يوكاتان. ومع ذلك، لم يصلا إليها

مطـلقـاً. فقد غرقت سفينتهما في قنال لوس بينتوس بعد سبعين يوماً أمضياها في بحر هائج. وأنقذتهما قافلة مُكسرة وهجرتهما لمصيرهما في سانتا ماريا لانتيجوا دل داربين. وبقيا هناك أكثر من سنة بانتظار البريد الموهوم في أسطول سفن الغاليون، إلى أن تم تعيين المطران دي كاثيريس مطراناً مؤقتاً في هذه المنطقة، وكان المنصب شاغراً بسبب موت صاحبه المفاجىء. وحين رأى ديلاورا غابة اورابا الهائلة من المركب الذي حملهما إلى مقرهما الجديد، تعرف على مشاعر الحنين التي كانت تعذب أمه في شتاءات طليطلة الكئيبة، كانت مناظر الغسق التي تبعث على الهذيان، والطيور الكابوسية، والعفونة اللذيذة المنبعثة من حقول أشجار المانجا تبدو له ذكريات حميمة عن ماضٍ لم يعشه. قال:

«إن الروح القدس وحده هو القادر على ترتيب الأمور بهذه الصورة المؤاتية للمجيء بي إلى موطن أمي».

بعد اثنتي عشـرة سنـة من ذلك، كان المطران قد تخلى عن حلمـه بـالذهاب إلى يوكاتان. وكان قد بلغ الثـالثـة والسبعـين، وكان يموت بالربو، ويعرف أنه لن يرى سلمنكا مطلقاً. وفي الأيام التي دخلت فيها سييرفا ماريا إلى الدير، كان مصمماً على التقاعد بعد أن يمهد لتلميذه الطريق إلى روما.

ذهب كايتانو ديلاورا إلى دير سانتا كلارا في اليوم التالي. كان يرتدي رداء من الصـوف الخام بالرغم من شـدة الحر، ويحمل معه إناء الماء

المقدس وقراباً يضع فيه الزيوت المقدسة، وهي أسلحة أساسية في الحرب ضد الشيطان. لم تكن رئيسة الدير قد رأته من قبل، ولكن اللغط الصاخب حول ذكائه وقدرته كان قد حطم الصمت الذي يكتنف محتبس الراهبات المعتكفات في الدير. حين استقبلته في قاعة اللقاءات في الساعة السادسة صباحاً تأثرت بمظهره الشبابي، وبشحوبه الذي يشبه شحوب شهداء الكنيسة، وبصوته المعدني، وبلغز ناصيته البيضاء. ولكن، لم تكن هناك فضيلة قادرة على جعلها تنسى أنه رجل المطران الحربي. أما ديلاورا بالمقابل، فإن الشيء الوحيد الذي لفت انتباهه هو صياح الديكة.

فقالت رئيسة الدير:

«إنها ستة ديكة فقط، ولكنها تصيح بصخب وكأنها مئة. أضف إلى ذلك أن خنزيراً قد تكلم وعنزة وضعت ثلاثة توائم» ثم أردفت بحدة: «كل الأمور تسير على هذا المنوال مذ تفضل علينا مطرانك بإرسال هذه الهدية المسمومة إلينا».

وقد أثارت لديها الذعر نفسه حديقة الدير المزهرة باندفاع كبير يبدو مناقضاً للطبيعة. ففي أثناء اجتيازهما الحديقة كانت تلفت انتباه ديلاورا إلى وجود أزهار بأحجام وألوان غير واقعية، ولبعضها روائح لا تطاق. ومع كل كلمة من كلماتها كان ديلاورا يشعر بأنها أقوى منه، فسارع إلى شحذ أسلحته.

قال لها:

«نحن لم نقل إن الطفلة ممسوسة. وإنما هناك أسباب لافتراض ذلك».

فقالت رئيسة الدير:

«ما نراه ينطق بنفسه».

قال ديلاورا:

«حاذري. إننا نعزو إلى الشيطان في بعض الأحيان أموراً لا نفهمها، دون أن نفكر في أنها قد تكون من أمور الرب التي لا ندركها».

قالت رئيسة الدير:

«لقد قال القديس توما، وعليه أتوكل، يجب ألا نصدق الشياطين حتى عندما ينطقون بالحقيقة».

في الطابق الثاني بدأ السكون. في أحد الجانبين كانت الغرف الخاوية الموصدة بالأقفال خلال النهار، وقبالتها صف النوافذ المطلة على بهاء البحر. لم يكن يبدو على المستجدات أنهن ساهيات عن أعمالهن، ولكنهن في الواقع كن يراقبن خفية رئيسة الدير وزائرها وهما يتوجهان إلى جناح السجن.

قبل أن يصلا إلى نهاية الممر، حيث زنزانة سييرفا ماريا، مرا أمام زنزانة مارتينا لابوردي، وهي راهبة قديمة محكوم عليها بالسجن المؤبد لأنها قتلت اثنتين من زميلاتها بسكين تقطيع. لم تعترف بسبب إقدامها على ذلك مطلقاً. لقد أمضت هناك أكثر من إحدى عشرة سنة، وكانت معروفة بمحاولات هروبها المحبطة أكثر مما هي معروفة بجريمتها. ولم تكن تتقبل على الإطلاق فكرة أن سجنها مدى الحياة مماثل لكونها راهبة في المحتبس المحرم في الدير، وكانت مخلصة لمبدئها لدرجة أنها طلبت أن تُمضي فترة الحكم عليها في العمل كخادمة في جناح المدفونات على قيد

الحياة. وكانت الفكرة المتسلطة على عقلها، والتي كرست من أجلها اجتهاداً لا يقل عن ذاك الذي كرسته لإيمانها، هي فكرة نيل حريتها حتى لو اقتضى منها ذلك أن تقتل ثانية.

لم يستطع ديلاورا مقاومة الفضول الطفولي بالنظر إلى الزنزانة من خلال قضبان الكوة الحديدة. كانت مارتينا توليه ظهرها. وحين أحست بأن هناك من ينظر إليها التفتت نحو الباب، فشعر ديلاورا على الفور بسطوة سحرها، فأبعدته رئيسة الدير المضطربة عن الكوة.

قالت له:

«كن حذراً. هذه المخلوقة قادرة على عمل أي شيء».

قال ديلاورا:

«إلى هذا الحد؟».

فقالت رئيسة الدير:

«أجل. ولو كان الأمر بيدي لكانت حرة منذ زمن بعيد. إنها تسبب اختلالاً كبيراً في هذا الدير».

حين فتحت الحارسة الباب، انطلقت من زنزانة سييرفا ماريا رائحة عفونة. كانت الطفلة مستلقية على السرير الحجري دون فرشة، ومقيدة اليدين والقدمين بسيور جلدية. كانت تبدو ميتة، ولكن كان ينبعث من عينيها بريق البحر. رآها ديلاورا مشابهة تماماً للطفلة التي رآها في حلمه، فسرت في جسده رعشة غطته بعرق متجمد، أغمض عينيه وصلى بصوت خافت وبكل خشوع، وحين انتهى كان قد استعاد السيطرة على نفسه. قال:

«حتى لو لم تكن هذه المخلوقة البائسة ممسوسة بأي شيطان، فإن لديها هنا هو الجو المناسب لتصبح كذلك».

فردت رئيسة الدير: «هذا شرف لا نستحقه». كانوا قد عملوا كل ما بوسعهم من أجل إبقاء الزنزانة في أحسن حال، لكن سييرفا ماريا كانت تولّد مزبلتها الخاصة.

قال ديلاورا:

«حربنا ليست ضدها وإنما ضد الشياطين التي تسكنها».

دخل ماشياً على رؤوس أصابعه ليتفادى النجاسات التي تغطي الأرض، ورش الزنزانة بمرشة الماء المقدس مدمدماً بعبارات التعزيم. ذعرت رئيسة الدير من البقع التي كانت تخلفها قطرات الماء على الجدران. وصرخت:

«دم!».

ففنّد ديلاورا حكمها المتسرع. فكون الماء أحمر لا يعني أنه دم، وحتى لو كان دماً، فإنه لا يعني بالضرورة عملاً شيطانياً. وقال: «الأصح أن نفكر في أنه معجزة، وهذه لا تكون إلا من عمل الرب». ولكن ما جرى لم يكن من عمل الشيطان ولا من عمل الرب، لأن قطرات الماء حين كانت تجف على الكلس لم تكن حمراء اللون وإنما ذات لون أخضر مركّز. احمرَّ وجه رئيسة الدير. فالراهبات الكلاريات، ومثلهن جميع نساء عصرها، كن محرومات من أي نوع من التكوين الأكاديمي، بينما كانت هي قد تعلمت المبارزة الاتباعية منذ شبابها في أسرتها التي تضم لاهوتيين مشهورين وهراطقة بارزين.

ردت عليه:

«لسنا ننكر على الأقل قدرة الشياطين على تبديل لون الدم».

فرد ديلاورا في الحال:

«ليس هناك ما هو أكثر جدوى من شكوك تأتي في وقتها» ثم نظر إليها مواجهة وأضاف: «اقرئي القديس اغوسطين».

قالت رئيسة الدير:

«لقد قرأته جيداً».

فقال ديلاورا:

«عودي إلى قراءته إذن».

قبل أن يبدأ عمله مع الطفلة، رجا الحارسة بلهجة رقيقة أن تخرج من الزنزانة. ثم قال لرئيسة الدير بعد ذلك، ولكن ليس بالرقة نفسها:

«وأنت أيضاً، أرجوك».

قالت:

«على مسؤوليتك».

فقال:

«المطران هو المرتبة الدينية الأعلى».

قالت رئيسة الدير بالخناءة ساخرة:

«لا حاجة لتذكيري بذلك. فنحن نعلم أنكما سيدا الرب».

أهدى إليها ديلاورا متعة أن تكون لها الكلمة الأخيرة.

جلس على حافة السرير وفحص الطفلة بصرامة الطبيب. كان ما يزال يرتعش، ولكنه لم يعد يتعرق.

كانت تبدو على جسد سييرفا ماريا عن قرب آثار خدوش وكدمات زرقاء، وكان جلدها مسـلوخاً بسبب احتكـاك السيور الجلدية. ولكن الجرح الأكثر إثارة كان ذاك الذي في كاحلها، الملتهب والمتقيح بفعل مداخلات المداوين غير المتقنة.

وبينما كان ديلاورا يفحصهـا، أوضح لها أنهم لم يأتوا بها إلى هنا ليعذبوها وإنما لارتيابهم بأن شيطاناً قد دخل في جسدها ليسرق روحها. وأنه يريد مساعدتها لكي يتوصل إلى الحقيقة. ولكن، كان من المستحيل معرفة إذا ما كانت تصغي إليه، وإذا ما كان قوله توسـلاً صادراً من القلب.

في نهاية الفحص، طلب ديلاورا إحضـار علبة أدوية، ولكنه منع الراهبة القيمة على الصيدلية من الدخول. دهن الجروح بمراهم بلسمية وخفف بنفخات ناعمة حرقة الجلد المسلوخ وهو يبدي إعجابه بصمود الطفلة أمام الألم. لم تجب سييرفا ماريا على أي سؤال من أسئلته، ولم تهتم بمواعظه، ولم تشكُ من أي شيء.

كانت بداية مثبطة للهمة لاحقت ديلاورا إلى سكون المكتبة، وهي أكثر الأمكنة اتساعاً في بيت المطران، لا توجد فيها أي نافذة، وجدرانها مغطـاة بواجهات زجاجية مصنوعة من خشب المُغْنة فيها كتب كثيرة مرتبة. وكان فيها طاولة عليها خرائط بحرية واسطرلاب وأدوات إبحار أخرى، وكرة أرضيـة عليهـا إضـافات وتعديلات مرسومة بيد رسـامي خرائط متتاليين تتفق مع التوسع الذي كان يطرأ على العالم. وفي أقصى الحجرة كانت توجد طاولة العمـل الخشنة وعليها دواة الحبر وقلامة

ريش الكتابة ومجموعة من رياش ديك رومي للكتابة، وغبار الرسائل وزهرية فيها زهرة قرنفل متعفنة. المكان كله كان ظليلاً ويعبق برائحة ورق راكد، وببرودة وسكون غابة.

في أقصى القاعة، وفي مكان أشد ضيقاً، كانت توجد خزانة مغلقة لها أبواب خشبية عادية. وكانت تلك الخزانة هي سجن الكتب المحظورة بمقتضى رقابة هيئات محاكم التفتيش، لأنها تعالج «موضوعات دنيوية وخرافيـة وقصص متكلفة». لم يكن مسموحاً لأحد، باستثناء كايتانو، الوصول إليها.

ذلك المكان الراكد منذ سنوات طويلة تحول إلى جحيمه مذ تعرف على سـيـيرفا ماريا. لن يعود إلى الاجتماع مع أصـدقائه، اللاهوتيـين والعـلمـانيـين، الذين كانوا يشـاطرونه لذة الأفكار النقية، وينظمون مبارزات كلامية، ومسابقات أدبية، وسهرات موسيقية. واقتصر شغفه على فهم مكايد الشيطان، وكرّس لهذا الأمر قراءاته وتأملاته طوال خمسة أيام بلياليها، قبل أن يعود إلى الدير. وحين رآه المطران يوم الاثنين يخرج بخطوات واثقة، سأله كيف يجد نفسه.

فقال ديلاورا:

«وكأنني أحلق بأجنحة الروح القدس».

كان قد ارتدى المسـوح القطني العـادي الذي يبث فيـه مشـــاعر حطّاب، وكانت روحه مدرعة ضد خمود الهمة، وهما أمران كان بحاجة إليهما. ردت الحارسة على تحيته بزمجرة، واستقبلته سييرفا ماريا مقطبة، وكان من الصعب التنفس في الزنزانة بسبب فضلات الطعام القديم

والبراز المنثور على الأرض، وعلى المذبح إلى جوار مصباح القداسة. كان غداء اليوم على حاله لم يُمس. تناول ديلاورا الطبق وقدم للطفلة ملعقة فاصولياء سوداء مع شحم مختر. فأعرضت عنه. أصر عليها عدة مرات، وكان رد فعلها هو نفسه في كل مرة. عندئذ أكل ديلاورا ملعقة الفاصولياء، وتذوقها في فمه، ثم ابتلعها دون مضغ وقد بدت عليه امارات الاشمئزاز.

قال لها:

«معك حق، هذا كريه جداً».

لم توله الصغيرة أدنى اهتمام. وبينما كان يعالج كاحلها الملتهب، تشنجت بشرتها وتخضلت عيناها. ظن أنها انقادت، فهدأها بوشوشات راع طيب، ثم تجرأ أخيراً على حلّ الأحزمة الجلدية لكي يمنح جسدها التالف استراحة. حركت الطفلة أصابعها عدة مرات لكي تشعر بأنها مازالت لها، وشدت قدميها المتخدرتين من الأحزمة. وبعدئذ تطلعت إلى ديلاورا لأول مرة، زانته، قاسته، وانقضت عليه بقفزة صائبة ككلب صيد. سارعت الحارسة إلى السيطرة عليها وتقييدها. وقبل أن يخرج ديلاورا أخرج من جيبه سبحة من الصندل وعلقها في عنق سييرفا ماريا فوق أطواقها المقدسة.

ذعر المطران حين رآه آتياً ووجهه مخدوش وفي يده عضة يثير الألم مجرد النظر إليها. ولكن أكثر ما أفزعه هو رد فعل ديلاورا الذي كان يعرض جراحه وكأنها أوسمة حرب ويسخر من خطر الإصابة بعدوى داء الكَلَب. ومع ذلك، فقد قدم له طبيب المطران علاجاً صارماً، إذ

كان ممن يخشـون أن يكون كسـوف الشمس يوم الإثنين التالي مقدمة لكوارث خطرة.

أما مارتينا لابوردي، الراهبة المجرمة، فلم تلق بالمقابل أدنى صدّ من جانب سييرفا ماريا. كانت قد اقتربت من الزنزانة على رؤوس قدميها، ورأتهـا مقيـدة القـدمـين واليـدين إلى السـرير. اتخذت الطفـلة وضع الاحتراس، وأبقت عينيها متيقظتين إلى أن ابتسمت لها مارتينا. عندئذ ابتسمت هي أيضاً واستسلمت دون شروط، فكان ذلك كما لو أن روح دومينغا ادفيينتا قد ملأت فضاء الزنزانة.

أخبرتها مارتينا عمن تكون، وعن سبب وجودها هناك طوال ما تبقى من حياتها على الرغم من أن صوتها قد بح لكثرة ما أعلنت براءتها. وحين سألت سييرفا ماريا عن أسباب سجنها، لم تستطع هذه الأخيرة أن تقول لها أكثر مما سمعته من راقيها:

«يوجد شيطان في داخلي».

تركتها مارتينا بسلام وهي تفكر بأنها تكذب عليها، أو أنهم كذبوا على الطفلة نفسها، دون أن تدري أنها كانت واحدة من البيض القلائل الذين قالت لهم سيـيرفا ماريا الحقيقة. أرتها نموذجاً من فن التطريز الذي تمارسـه، فطلبت منها الطفلة أن تفك قيودها لكي تحاول عمل شيء مماثل. أرتها مارتينا المقص الذي تحمله في جيب ثوبها مع أدوات خياطة أخرى، وقالت لها:

«تريدين أن أفك قيودك. ولكنني أحذرك، لأنني أملك ما أقتلك به إذا حاولت إلحاق الأذى بي».

لم تشك سيـيرفا ماريا بتصميمها. أفلتتها، وأعادت الطفلة تمرين التطريز بالسهولة والإصغـاء الجيد اللذين تعـلمت بهما العزف على التيوربا. وقبل أن تخرج مارتينا وعدتها بالسعي للحصول على إذن لكي تريا معاً كسوف الشمس الكامل يوم الإثنين التالي.

في فجر يوم الجمعـة، ودعت طيور السنونو المدينـة بجولة طيران واسعة في السماء، ونثرت على الشوارع والأسطحة ثلجاً نيلياً مقززاً. كان من الصعب الأكل أو النوم قبل أن تجفف شمس الظهيرة سلح الطيور المتزايد وتنقي نسمات الليل رائحة الهواء. لكن الرعب كان هو السائد. لم يكن هناك من رأى من قبل طيور السنونو تلقي ذراقها وهي طائرة أو من سمع بأن نتانة فضلاتها تعرقل الحياة.

ولم يشك أحد في الدير بالطبع في أن لدى سييرفا ماريا قدرات هائلة يمكنها أن تغير قوانين هجرات الطيور. وقد أحس ديلاورا بذلك حتى في قساوة الهواء بعد قداس يوم الأحد، أثناء اجتيازه الحديقة وهو يحمل سـلة حلوى اشتراها عند بوابات المدينة. أما سييرفا ماريا التي كانت خالية الذهن تماماً من كل شيء، فكانت ماتزال تحمل السبحة المعلقة في عنقها. جلس إلى جوارها وقضم بشهية قرص حلوى تناوله من السلة، وقال وفمه ممتلئ:

«إن له مذاق المجد».

قرَّب نصف قرص الحلوى الآخر من فم سييرفا ماريا. فأعرضت عنه، ولكنها لم تلتفت نحو الجدار كما في المرة السابقة، وإنما أومأت إلى ديلاورا بأن الحارسة تراقبهما. فأشار بحركة نشطة نحو الباب، وقال آمراً:

«اخرجي من هنا».

حين ابتعدت الحارسة، أرادت الطفلة إشباع جوعها المزمن بنصف قرص الحلوى، ولكنها ما لبثت أن بصقت اللقمة قائلة: «إنه مذاق خراء السنونو». ولكن مزاجها تبدل مع ذلك. أبدت تعاوناً في علاج القروح التي تلهب ظهرها، وأعارت انتباهها لأول مرة إلى ديلاورا حين لاحظت أن يده مضمدة. فسألته ببراءة لا يمكن أن تكون متكلفة عما حدث له.

فقال ديلاورا:

«لقد عضتني جروة مسعورة لها ذيل يزيد طوله على المتر».

رغبت سيرفا ماريا في رؤية الجرح. فنزع ديلاورا الضماد عن يده، ولمست بإصبعها السبابة هالة الالتهاب المحيطة بالجرح برفق وكأنها تلمس قطعة جمر، وضحكت للمرة الأولى قائلة:

«إنني أسوأ من الطاعون».

لم يرد عليها ديلاورا من الأناجيل، وإنما ببيت من أشعار غارثيلاسو:

«**تستطيعين عمل هذا بمن هو قادر على تحمله**».

أخذ يتقد حين تبين له أن شيئاً هائلاً ولا عودة فيه بدأ يحدث في حياته. عندما خرج ذكّرته الحارسة، بأمر من رئيسة الدير، أنه من المحظور إحضار أطعمة من خارج الدير خشية أن يدس أحدهم السم في المأكولات، مثلما حدث أثناء الحصار. فكذب عليها ديلاورا بالقول إنه أحضر السلة بإذن من المطران، وسجل اعتراضاً رسمياً على سوء الأطعمة التي يقدمها دير مشهور بمطبخه الجيد.

في أثناء العشاء، قرأ للمطران بحماسة جديدة. ورافقه في صلوات

الليل كما هي عادته، وأبقى عينيه مغمضتين لكي يفكر في سييرفا ماريا بصورة أفضل أثناء الصلاة. انسحب إلى المكتبة في وقت مبكر أكثر من المعتاد وهو يفكر فيها، وكلما فكر فيها أكثر ازداد شوقه إلى مزيد من التفكير. ردد بصوت عال سونيتات غارثيلاسو الغزلية وهو مذعور لاشتباهه بأن هناك في كل سطر منها إشارة مشفَّرة لها علاقة بحياته. لم يتمكن من النوم. وعند الفجر، مال على الطاولة مسنداً جبهته على الكتاب الذي لم يقرأه. ومن أعماق حلمه سمع ثلاثة أجزاء صلاة فجر اليوم الجديد في المصلى المجاور. وقال وهو نائم «تحية الرب إليك يا ماريا دي تودوس لوس انخيلس» فاستيقظ صوته فجأة، ورأى سييرفا ماريا بثوب السجينة وشعرها نار موقدة على كتفيها، فألقت جانباً بالقرنفلة القديمة ووضعت مكانها في زهرية الطاولة باقة من أزهار الغاردينيا المتفتحة لتوها. فقال لها ديلاورا، مع غارثيلاسو، بصوت متأجج: «**من أجلك ولدت، من أجلك أحيا، من أجلك سأموت، ومن أجلك أموت**». فابتسمت سييرفا ماريا دون أن تنظر إليه. وأغمض هو عينيه ليتأكد من أن ما يراه ليس خدعة من خدع الظلال. فتلاشت الرؤيا حين فتح عينيه، ولكن المكتبة كانت تعبق بأثر غاردينياتها.

أربعة

دعا المطران الأب كايتانو ديلاورا ليشاهدا معاً حدوث الكسوف تحت عريشة أزهار الجريس الصفراء، وهي المكان الوحيد المشرف على البحر في البيت. كانت طيور البط البحري الثابتة في الفضاء بأجنحتها المبسوطة تبدو وكأنها ميتة وهي طائرة. كان المطران يهوّي ببطء وهو في أرجوحة نوم معلقة بعمودين في طرفيهما رحويتا مركب، حيث أنهى قيلولته للتو. وكان ديلاورا يتأرجح إلى جواره على كرسي هزاز من الخيزران. كلاهما كان في حالة انشراح وهما يرشفان شراب التمر الهندي وينظران من فوق الأسطحة إلى السماء الفسيحة الخالية من الغيوم. بعد الساعة الثانية بقليل بدأ الظلام يخيم، تكورت الدجاجات على نفسها فوق الحمالات، وأضيئت كل النجوم في وقت واحد. هزت الدنيا قشعريرة غير عادية. سمع المطران خفق أجنحة الحمائم المتأخرة وهي تبحث عن أبراجها في الظلام، فتنهد:

«الرب كبير. حتى الحيوانات تشعر بذلك».

حملت إليهما الراهبة المناوبة قنديلاً وقطع زجاج قاتمة كي ينظرا إلى الشمس. اعتدل المطران في أرجوحة النوم وبدأ يراقب الكسوف من خلال قطعة الزجاج.

قال وهو يحاول السيطرة على صفير أنفاسه:

«يجب النظر بعين واحدة فقط، وإلا فإنك ستغامر بفقدان كلتا عينيك».

بقي ديلاورا ممسكاً بقطعة الزجاج في يده دون أن ينظر إلى الكسوف. وبعد صمت طويل، تفحصه المطران في العتمة، ورأى عينيه المشعتين ساهيتين تماماً عن فتنة الليل الزائف.

سأله:

«بم تفكر؟»

لم يجبه ديلاورا. رأى الشمس مثل هلال آخذ بالتناقص، وأحس بألم في شبكية عينه على الرغم من قطعة الزجاج القاتمة. ولكنه لم يتوقف عن النظر.

قال المطران:

«مازلت تفكر في الطفلة».

ذعر كايتانو بالرغم من معرفته بأن لدى المطران قدرة على إصابة الحقيقة أكثر مما هو طبيعي ومعتاد. قال: «كنت أفكر في أنه يمكن للعامة أن يربطوا نكباتهم بهذا الكسوف». فهز المطران رأسه دون أن يزيح نظره عن السماء وقال:

«ومن يدري إذا ما كانوا على صواب؟ فأوراق الرب ليست سهلة القراءة».

قال ديلاورا:

«هذه الظاهرة جرى حسابها منذ آلاف السنين من قبل الفلكيين الآشوريين».

قال المطران:

«هذا رد يسوعي».

واصل كايتانو النظر إلى الشمس دون قطعة الزجاج لمجرد الشرود. في الساعة الثانية وعشر دقائق كانت الشمس تبدو قرصاً أسود كاملاً، وساد للحظة ظلام منتصف الليل في عز النهار. ثم استعاد الكسوف بعد ذلك وضعه الدنيوي، وبدأت الديكة تصدح بصياح الفجر. وعندما توقف ديلاورا عن النظر، كانت ميدالية النار ماتزال عالقة بشبكية عينه. فقال مداعباً:

«مازلت أرى الكسوف، إنني أراه أينما وجهت نظري».

اعتبر المطران العرض منتهياً، وقال: «ستتخلص منه بعد بضع ساعات». ثم تمطّى وهو جالس في الأرجوحة، وتثاءب وحمد الرب على اليوم الجديد.

لم يفلت ديلاورا الخيط:

«مع احترامي يا أبتاه، لا أعتقد بأن هذه المخلوقة مصابة بمس».

في هذه المرة ذعر المطران حقاً:

«لماذا تقول هذا؟».

قال ديلاورا:

«أظنها مذعورة فقط».

فقال المطران:

«لدينا من الأدلة مايكفي الرب. أم أنك لاتقرأ المحاضر؟» بلى، لقد درس ديلاورا التقارير بتعمق، وكانت تنفع للتعرف على ذهنية رئيسة الدير أكثر من نفعها في معرفة حالة سييرفا ماريا. كانوا قد رقوا الأماكن التي كانت فيها الطفلة صبيحة يوم إدخالها إلى الدير وعزموا على كل مالمسته. وأخضعوا جميع من اتصلوا بها إلى الصوم والتطهير. والمستجدة التي سرقت منها الخاتم في اليوم الأول حكم عليها بالأعمال الشاقة في البستان، وقيل إن الطفلة بدت مبتهجة وهي تقطع جدياً كانت قد ذبحته بيديها، وأنها أكلت خصيتيه وعينيه المتبلة ببهارات كالنار الموقدة. وأنها تتباهى بموهبة معرفة لغات تتيح لها التفاهم مع الأفارقة على اختلاف أممهم، وأفضل مما يتفاهمون هم أنفسهم فيما بينهم، كما أنها تتفاهم مع البهائم من كل نوع. وفي اليوم التالي لوصولها إلى الدير، طلع الصباح على الاحدى عشرة ببغاء التي تزين الحديقة منذ نحو عشرين سنة، وهي ميتة جميعها دون سبب. وقد سحرت الخدم بأغنياتها الشيطانية التي تنشدها بأصوات مختلفة عن صوتها. وحين علمت أن رئيسة الدير تبحث عنها، جعلت نفسها غير مرئية لعيني الرئيسة وحدها.

قال ديلاورا:

«ومع ذلك، فإنني أرى أن مايبدو لنا شيطانياً ماهو إلا عادات الزنوج التي تعلمتها الطفلة بسبب الإهمال الذي تركها فيه أبويها».

فنبهه المطران:

«حذار! إن العدو يستفيد من ذكائنا أكثر مما يستفيد من أخطائنا».

قال ديلاورا:

«إن أفضل هدية نقدمها إليه إذن هي التعزيم على مخلوقة سليمة».
اغتاظ المطران:
«هل عليّ أن أفهم أنك متمرد؟».
فقال ديلاورا:
«عليك أن تفهم بأنني أحتفظ بشكوكي. ولكنني أمتثل بكل مذلة».
وهكذا رجع إلى الدير دون أن يتمكن من إقناع المطران. كان يضع على عينه اليسرى عصابة أعور -أوصاه طبيبه بوضعها ريثما تتلاشى الشمس المطبوعة على الشبكية. أحس بالنظرات التي تلاحقه على طول الحديقة والممرات المتتالية حتى جناح السجن، ولكن أحداً لم يوجه إليه كلمة واحدة. كان الجو كله وكأنه في حالة نقاهة من الكسوف.
عندما فتحت له الحارسة باب زنزانة سييرفا ماريا، أحس ديلاورا بقلبه ينفجر في صدره وفكر في ما إذا كان قادراً على البقاء واقفاً على قدميه. ولكي يختبر صوته في هذا الصباح فقط، سأل الطفلة إذا ما كانت قد رأت الكسوف. وكانت قد رأته من الشرفة بالفعل. لم تفهم سبب وضعه العصابة على عينه مادامت هي نفسها في حالة جيدة مع أنها نظرت إلى الشمس دون أي واقية.
أخبرته بأن الراهبات قد رأين الكسوف وهن جاثيات، وأن الدير قد أصيب بالشلل إلى أن بدأ صياح الديكة. أما هي فلم تر في الأمر شيئاً من عالم آخر. وقالت:
«ما رأيته هو شيء نراه كل ليلة».
كان ثمة شيء فيها قد تبدل دون أن يستطيع ديلاورا تحديده، وكان

العارض الأكثر وضوحاً له هو مسحة من الحزن. لم يخطىء. فما كاد يبدأ العلاج حتى ركَّزت الطفلة عليه عينيها الجزعتين، وقالت له بصوت مرتعش:

«سأموت».

ارتعد ديلاورا:

«من قال لك ذلك؟»

فقالت الطفلة:

«مارتينا».

«هل رأيتها؟»

أخبرته الطفلة بأنها ذهبت مرتين إلى زنزانتها لكي تتعلم التطريز، وأنهما رأتا الكسوف معاً. وقالت له إنها طيبة ورقيقة وإن رئيسة الدير سمحت لها بتلقي دروس التطريز على الشرفة لرؤية الغروب في البحر.

«آها!» قال دون أن يرمش. «وهل قالت لك متى ستموتين؟»

فأكدت الطفلة ذلك وهي تضغط شفتيها كي لاتبكي:

«بعد الكسوف».

فقال ديلاورا:

«بعد الكسوف قد يعني المئة سنة القادمة».

ولكنه اضطر إلى التركيز على العلاج كي لاتنتبه إلى وجود عقدة في حنجرته. ولم تضف سيرفا ماريا شيئاً. عاد ينظر إليها وهو ساهم لصمتها، ورأى أن عينيها مخضلتان.

قالت:

«إنني خائفة».

انهارت على السرير وأجهشت ببكاء مؤثر. جلس قربها وشجعها بملاطفات متلقي الاعتراف. عندئذ فقط عرفت سييرفا ماريا أن كايتانو هو راقيها وليس طبيبها. فسألته:

«لماذا تعالجني إذن؟»

فارتعش صوته:

«لأنني أحبك كثيراً».

وكانت هي حساسة لجسارته.

لدى خروجه، أطل ديلاورا على زنزانة مارتينا. ولأول مرة رأى عن قرب أن لها بشرة منقورة بالجدري، ورأساً أجرد، وأنفاً كبيراً جداً، وأسنان فأرة. ولكن قدرتها على الإغواء كانت مادة منسابة يمكن الاحساس بها على الفور. فضل ديلاورا أن يتحدث إليها من العتبة:

«لدى هذه الطفلة المسكينة مايكفي من الأسباب لتكونَ مذعورة. فأرجوك ألا تزيدي من مخاوفها».

شعرت مارتينا بالارتباك. لم يكن قد خطر لها في يوم من الأيام أن تتنبأ لأحد بيوم موته، وخصوصاً لطفلة فاتنة وعزلاء مثل تلك. لقد سألتها عن حالتها فقط، ومنَ خلال ثلاث أو أربع إجابات أدركت أن الطفلة تمارس الكذب كعادة. وقد كانت الجدية التي قالت بها مارتينا ذلك كافية لجعل ديلاورا يدرك أن سييرفا ماريا قد كذبت عليه أيضاً. طلب المعذرة لخفته، ورجاها ألا تخبر الطفلة بأي شيء. وانتهى إلى القول:

«سأعرف جيداً مايجب علي عمله».

أحاطته مارتينا بسحرها قائلة: «إنني أعرف نيافتك، وأعرف أنك كنت دائماً تعرف جيداً ماتفعله». ولكن ديلاورا كان كسير الجناح لتأكده من أن سييرفا ماريا لم تكن بحاجة إلى مساعدة أحد لكي تحتضن الخوف من الموت في عزلة زنزانتها.

في ذلك الأسبوع، بعثت الأم خوسيفا ميراندا إلى المطران مذكرة شكاوي ومطالب كتبتها بخط يدها. طلبت منه فيها أن يعفي الراهبات الكلاريات من المدعوة سييرفا ماريا التي ترى فيها عقوبة متأخرة على خطايا جرى التكفير عنها بصورة كافية.

وعددت سلسلة جديدة من الأحداث الشاذة التي تضاف إلى المحاضر السابقة، والتي لايمكن تفسيرها إلا بأنها تواطؤ سافر من الطفلة مع الشيطان. وكانت نهاية المذكرة استنكاراً غاضباً لعجز كايتانو ديلاورا، ولتحرره الفكري وكراهيته الشخصية لها، وإساءته استخدام مكانته بحمله الأطعمة إلى الدير مخالفاً الأنظمة التي تحظر ذلك.

عرض المطران المذكرة على ديلاورا فور عودته إلى البيت، فقرأها وهو واقف، دون أن ترتعش عضلة واحدة في وجهه. ثم انتهى إلى الهياج والقول:

«إذا كان هناك من به مسّ من جميع الشياطين فإنه خوسيفا ميراندا نفسها. شياطين الحقد والتعصب والسفه. إنها كريهة!».

أعجب المطران بلوذعيته. وقد لاحظ ديلاورا ذلك، فحاول أن يوضح رأيه بلهجة أكثر هدوءاً، فقال:

«ما أريد قوله هو أنها نسبت إلى قوى الشر قدرات كبيرة جداً، حتى أصبحت هي نفسها تبدو وكأنها عبدة الشيطان».

قال المطران:

«إن منصبي لايسمح لي بأن أوافقك الرأي. ولكنني أرغب في أن أكون كذلك».

أنَّبه على أي تمادٍ ربما يكون قد اقترفه، وطلب منه التحلي بالصبر لتحمل مزاج رئيسة الدير المشؤوم. وقال له: «الأناجيل ممتلئة بنساء مثلها، بل وممن هن أسوأ منها. ومع ذلك فإن يسوع قد مجّدهن». ولم يستطع مواصلة كلامه لأن أول رعود الفصل دوت في البيت وتدحرجت مبتعدة عبر البحر، ثم انهمر مطر توراتي فصلهما عن بقية البيت. تمدد المطران على الكرسي الهزاز وغرق في الحنين.

تنهد:

«كم نحن بعيدون!».

«عن أي شيء؟»

فقال المطران:

«عن أنفسنا بالذات. وهل يبدو لك عدلاً أن أحدنا يحتاج إلى سنة كاملة لكي يعرف أنه أصبح يتيماً؟» ولأنه لم يتلق رداً، فقد غاص في الحنين: «إنني أمتلىء خوفاً لمجرد التفكير في أنهم قد ناموا هذه الليلة في اسبانيا».

قال ديلاورا:

«لانستطيع التحكم بحركة دوران الأرض».

وقال المطران:

«ولكننا نستطيع تجاهلها حتى لاتسبب لنا الآلام.لقد كان غاليليو يفتقر إلى القلب أكثر من افتقاره إلى الإيمان».

كان ديلاورا يعرف تلك الأزمات التي تعذب المطران في لياليه ذات الأمطار الحزينة منذ بدأت الشيخوخة تجتاحه في وثبات. الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه عمله هو شغله عن سواد عصارة غدته الصفراء إلى أن يتغلب عليه النعاس.

في أواخر شهر نيسـان، تم الاعلان في بلاغ رسمي عن الوصول الوشيك للوالي الجديد دون رودريغو دي بوين لوثانو، في طريقه إلى مقره في سانتافي. كان قادماً مع بطانته من المستشارين والموظفين، ومع خدمه وأطبائه الشخصيين، وجوقة آلات وترية رباعية أهدته إياها الملكة لكي يتحمل ضجر الهند الغربية. كانت تربط زوجة الوالي علاقة قربى مع رئيسة الدير، فطلبت أن ينزل الركب في الدير.

لف النسيان سييرفا ماريا وسط إطفاء الكلس الحي وأبخرة القطران ودوي المطارق وصرخات السباب التي كان يطلقها أناس من كل صنف ممن غزوا البيت ووصلوا حتى محتبس الراهبات المحرم. انهارت سقالة محدثة دوياً هائلاً، فمات بنّاء وأصيب سبعة عمال آخرين بجروح. وقد عزت رئيسة الدير الكارثة إلى أقدار سييرفا ماريا المشؤومة، وانتهزت الفرصة الجديدة لكي تلح على إرسالها إلى دير آخر ريثما تنقضي أيام

الاستقبال البهيجة. وكانت ذريعتها في هذه المرة هي أن مجاورة ممسوسة ليست بالأمر اللائق بزوجة الوالي. لكن المطران لم يرد عليها.

كان الوالي دون رودريغو دي بوين لوثانو استورياً ناضجاً ورشيقاً، بطلاً في لعبة الكرة الباسكية وفي الرماية على الحجل، وكان يعوض بظرافته عن السنوات الاثنتين والعشرين التي يكبر بها زوجته. كان يضحك بكل جسده حتى من نفسه، ولم يكن يضيع أي فرصة تسنح له لإظهار ذلك، منذ أن أحس بأولى نسمات الكاريبي، متقاطعة مع طبول ليلية وشذا جوافة ناضجة، خلع الملابس الربيعية وصار يمضي عاري الصدر بين حلقات النميمة النسائية. نزل إلى البر بقميص قصير الأكمام، ودون خطابات ودون طلقات المدافع الاستعراضية. وتم السماح على شرفه برقصات الفاندانغو والبونديس وكومبامبا، مع أن المطران كان قد حظرها، كما أُقيمت عروض للثيران ومصارعات للديكة في العراء.

كانت زوجة الوالي مراهقة تقريباً، نشطة ومتمردة بعض الشيء، وقد دخلت إلى الدير مثل هبة ريح تجديدية. لم يكن هناك ركن لم تفتشه، ولا مشكلة لاتفهمها، ولا شيء جيد لاترغب في تحسينه أكثر. ففي جولتها على الدير أرادت أن تستنفد كل شيء بسهولة بكرية. حتى أن رئيسة الدير ارتأت أنه من الأفضل تخليصها من الانطباع السيء الذي قد تخلفه رؤية السجن، فقالت لها:

«إنه لايستحق الزيارة. فليس فيه سوى سجينتين، إحداهما بها مسّ من الشيطان».

كان قول ذلك كافياً لإثارة اهتمامها. ولم يُجْدِ نفعاً القول لها أنه لم تتم تهيئة الزنازين ولا تنبيه السجينتين. ما إن فتح الباب حتى ألقت مارتينا لابوردي بنفسها على قدمي الزائرة متوسلة العفو.

لم يكن يبدو أنه من السهل العفو عنها بعد إقدامها على عملية هروب فاشلة وأخرى ناجحة. المحاولة الأولى قامت بها قبل ست سنوات، من الشرفة المطلة على البحر، مع ثلاث راهبات أخريات محكومات في قضايا مختلفة وبأحكام متفاوتة. وقد تمكنت إحداهن من الفرار فعلاً. وكان أن أغلقوا حينئذ النوافذ وحصنوا الفناء تحت الشرفة. وفي السنة التالية، قامت السجينات الثلاث المتبقيات بتقييد الحارسة التي كانت تنام آنذاك داخل الجناح، وهربن من أحد أبواب الخدم. ولكن أسرة مارتينا، بالاتفاق مع كاهن اعترافها، أعادتها إلى الدير. وقد بقيت لأربع سنوات طويلة السجينة الوحيدة في الجناح، ولم يكن لها الحق بتلقي زيارات في غرفة المقابلات ولا بحضور قداس يوم الأحد في المصلى. أي أن العفو عنها كان يبدو مستحيلاً. ومع ذلك، فقد وعدتها زوجة الوالي بأن تتوسط لها لدى زوجها.

كان الهواء في زنزانة سييرفا ماريا مايزال حريفاً بسبب الكلس الحي ورائحة القطران الكريهة، ولكن كان هناك ترتيب جديد. ما إن فتحت الحارسة الباب حتى أحست زوجة الوالي بأنها قد سُحرت بنفحة جليدية. كانت سييرفا ماريا جالسة بثوبها المخطط وخفها المتسخ، تطرز ببطء في ركن مضاء بنورها نفسه. لم ترفع رأسها إلى أن حيتها زوجة الوالي. ولمحت هذه الأخيرة في نظرتها قوة الإلهام التي لاتقاوم، فدمدمت:

«ياقدس الأقداس» وخطت خطوة إلى داخل الزنزانة.

فهمست رئيسة الدير في أذنها:

«حذار. إنها مثل نمرة».

وأمسكتها من ذراعها. لم تدخل زوجة الوالي، ولكن مجرد رؤية سييرفا ماريا جعلتها تبيت النية لإنقاذها.

حاكم المدينة الذي كان أعزب وزير نساء، أقام وليمة غداء للرجال فقط على شرف الوالي. وقد عزفت فيها الجوقة الرباعية الوترية الاسبانية، وفرقة سان خاثينتو للقرَب والطبول، وأقيمت حلقات رقص عامة وتنكرية ساخرة للزنوج يقلدون رقصات البيض بسخرية بذيئة. وعند تقديم الحلوى، فتحت ستارة في أقصى الصالة، وظهرت العبدة الحبشية التي اشتراها الحاكم بما يساوي وزنها ذهباً. كانت تضع عباءة شفافة تزيد من خطورة عريها. وبعد أن عرضت نفسها عن قرب على المدعوين العاديين، توقفت أمام الوالي، وانزلقت ألعباءة عن جسدها حتى قدميها.

كان كمالها مثيراً للفزع. لم يكن كتفها منتهكاً بوسم النخاس، ولم يكن ظهرها موسوماً كذلك بالحرف الأول من اسم سيدها الأول، وكان كل مافيها يعبق بأنفاس سرية. شحب وجه الوالي، وحبس أنفاسه، ثم محا من ذاكرته الرؤيا التي لاتطاق بحركة من يده.

قال آمراً:

«خذوها من هنا بحق حب ربنا. لاأريد رؤيتها ثانية طوال ماتبقى من حياتي».

وربما كعقوبة انتقامية من طيش الحاكم، قدمت زوجة الوالي سييرفا ماريا في حفلة العشاء التي أقامتها لهم رئيسة الدير في قاعة طعامها الخاصة. كانت مارتينا لابوردي قد حذرتهم: «لاتحاولوا نزع أطواقها وأساورها، وسترون كم سيكون سلوكها وديعاً». وهذا ماحدث بالفعل. ألبسوها ملابس الجدة التي جاءت بها إلى الدير، غسلوا شعرها المفلت وسرحوه لكي تجره وراءها بصورة أفضل، وقادتها زوجة الوالي بنفسها من يدها إلى طاولة زوجها. وقد ذهلت رئيسة الدير نفسها من رصانتها، ومن تألقها، ومن أعجوبة شعرها. همست زوجة الوالي في أذن زوجها: «إنها مصابة بمس من الشيطان».

رفض الوالي تصديق ذلك. كان قد رأى ممسوسة في بورغوس ظلت تتغوط طوال ليلة كاملة إلى أن فاضت الغرفة. وفي محاولة منه لتجنيب سييرفا ماريا مصيراً مماثلاً، عهد بها إلى أطبائه. فأكد هؤلاء على أنه لايوجد لديها أي عارض من أعراض داء الكلب، واتفقوا مع رأي ابرينونثيو بأنه لم يعد هناك احتمال بأن تصاب بعدوى هذا الداء. إلا أن أياً منهم لم يَرَ مع ذلك أنه مؤهل للتشكيك في أمر كونها مصابة بمس شيطاني.

انتهز المطران فرصة الاحتفالات لكي يفكر في أمر مذكرة رئيسة الدير والوضع النهائي لسييرفا ماريا. أما كايتانو ديلاورا فقد حاول بدوره القيام بالتطهر الذي يسبق التعزيم، فحبس نفسه في المكتبة حيث كان يقتات بأقراص عجة اليكة والماء. ولكنه لم يتوصل إلى مراده. أمضى ليال من الهذيان ونهارات دون نوم وهو يكتب أشعاراً تتجاوز المعقول

كانت مُسكِّنه الوحيد لإخماد قلق الجسد.

وقد عُثر على بعض تلك القصائد التي يصعب حل رموزها في لفافة مربوطة عند هدم المكتبة بعد نحو قرن من الزمان. القصيدة الوحيدة التي كان بالإمكان قراءتها وفهمها كاملة هي التي يتذكر فيها نفسه حين كان في الثانية عشرة من عمره، وهو جالس على صندوق تلميذ تحت مطر ربيعي خفيف في فناء مدرسة الاكليروس المرصوف في ابيلا.

كان قد وصل إلى هناك قادماً من طليطلة بعد عدة أيام من السفر على بغلة وهو يرتدي ثوباً لأبيه معدلاً على مقاسه. وكان ذلك الصندوق أثقل منه مرتين، لأن أمه وضعت فيه كل ما سيحتاجه ليعيش بكرامة حتى انتهاء مرحلة دراسته كمستجد. ساعده البواب على وضع الصندوق في منتصف الفناء، وتركه هناك تحت المطر قائلاً له:

«احمله إلى الطابق الثالث. هناك سيدلونك على مكانك في المهجع».

وفي لحظة كان جميع من في المدرسة يطلون من الشرفات على الفناء منتظرين ما الذي سيفعله بالصندوق، وكأنه الممثل الوحيد في عمل مسرحي يجهل هو وحده مضمونه. وحين أدرك أنه لايستطيع الاعتماد على أحد، أخرج من الصندوق الأشياء التي يمكنه حملها بين ذراعيه، وصعد بها إلى الطابق الثالث على الأدراج الحجرية المرتفعة. أشار له المشرف إلى مكانه في صفي أسرة مهجع المستجدين. وضع كايتانو أشياءه فوق السرير، ثم عاد إلى الفناء ليصعد أربع مرات أخرى يحمل فيها ماتبقى من متاعه، وأخيراً أمسك الصندوق الفارغ من مقبضه وصعد وهو يجره على الدرج.

الأساتذة والتلاميذ الذين كانوا يراقبونه من الشرفات، كانوا يكفون عن النظر إليه عندما يمر من كل طابق. ولكن الأب المدير الذي كان ينتظره عند نهاية الدرج في الطابق الثالث حين صعد بالصندوق، بدأ التصفيق. وحذا الآخرون حذوه بحماس. عندئذ علم كايتانو أنه قد اجتاز بنجاح أول طقوس البدء في المدرسة، ويتلخص بالصعود بالصندوق حتى المهجع دون السؤال عن أي شيء ودون مساعدة من أحد. لقد اعتبرت سرعة بديهته، وحسن فطرته، وصلابة طبعه نموذجاً يحتذى للمستجدين.

ومع ذلك، فإن الذكرى التي ستترك أثرها عليه أكثر من سواها هي ذكرى لقائه تلك الليلة مع المدير في مكتبه، وكان قد استدعاه للتحدث إليه عن الكتاب الوحيد الذي وجدوه في صندوقه. كان الكتاب مهلهلاً وناقصاً ودون غلاف، تماماً مثلما أخرجه دون تعيين من أحد صناديق والده. كان قد قرأ فيه إلى حيث يستطيع القراءة في ليالي سفره، وكان متشوقاً لمعرفة نهايته.. وقد أراد الأب المدير أن يعرف رأيه بالكتاب. فأجابه:

«سأعرف رأيي حين أنتهي من قراءته».

فوضعه المدير في خزانة مقفلة وهو يبتسم مرتاحاً، وقال له: «لن تعرف النهاية مطلقاً. إنه كتاب محظور».

بعد ست وعشرين سنة من ذلك، وبينما هو في عتمة مكتبة الأبرشية، انتبه إلى أنه قرأ كل الكتب التي وصلت إليها يده، المسموحة منها والمحظورة، باستثناء ذلك الكتاب. وهزه الإحساس بأن حياة بكاملها

تنتهي في ذلك اليوم، وأن حياة أخرى، غير متوقعة، تبدأ.

كان قد بدأ صلواته المسائية، في اليوم الثامن للصوم، حين أخبروه بأن المطران ينتظره في القاعة لاستقبال الوالي. كانت الزيارة مفاجئة حتى بالنسبة للوالي نفسه، فقد خطرت له في وقت غير مناسب أثناء جولته الأولى في المدينة. وكان عليه أن يتأمل الأسطحة من الشرفة المزهرة ريثما يستدعون على جناح السرعة أقرب الموظفين ويرتبون القاعة قليلاً.

استقبله المطران مع ستة كهنة من هيئة أركانه. وقد جلس إلى يمينه كايتانو ديلاورا الذي قدمه باسمه الكامل دون أي ألقاب أخرى. وقبل بدء الحديث، جال الوالي بنظرة مشفقة على الجدران المقشرة، والستائر الممزقة، والأثاث التقليدي الرخيص، والكهنة المضمخين بالعرق في مسوحهم الفقيرة. فقال المطران وقد مسه الكبرياء: «نحن أبناء يوسف النجار». فأومأ الوالي إيماءة تفهم، وبدأ الحديث عن انطباعاته في الأسبوع الأول. تحدث عن مخططاته الخيالية لتنمية التجارة مع جزر الأنتيل الانكليزية فور التئام جراح الحرب، وعن مزايا التدخل الرسمي في التعليم، وعن تشجيع الفنون والآداب لوضع هذه الضواحي المستعمرة على إيقاع العالم.

قال:

«إنها أزمنة التجديد».

تحقق المطران مرة أخرى من سهولة السلطة الدنيوية. فأشار بإصبعه السبابة المرتعشة نحو ديلاورا دون أن ينظر إليه، وقال للوالي:

«الشخص المطلع على هذه المستجدات هنا هو الأب كايتانو».

تابع الوالي اتجاه السبابة ببصره إلى أن التقى بالوجه البعيد والعينين الذاهلتين اللتين تنظران إليه دون أن ترمشا. فسأل ديلاورا باهتمام حقيقي:

«هل قرأت ليبنز؟».

فقال ديلاورا:

«أجل ياصاحب السعادة» ثم أضاف محدداً: «ضمن طبيعة عملي».

عند نهاية الزيارة بدا واضحاً أن اهتمام الوالي الأكبر ينصب على وضع سييرفا ماريا. وقد أوضح أن اهتمامه من أجلها هي بالذات، ومن أجل راحة نفس رئيسة الدير التي أثّرت فيه محنتها.

قال المطران:

«مازلنا نفتقر إلى الأدلة القاطعة. ولكن المحاضر القادمة من الدير تقول لنا إن هذه المخلوقة البائسة مسكونة بالشيطان. رئيسة الدير تعرف ذلك خيراً منا».

قال الوالي:

«هي تعتقد أنكم وقعتم في فخ نصبه الشيطان».

فقال المطران.

«لسنا نحن فقط، وإنما اسبانيا بأسرها. لقد اجتزنا البحر المحيط لكي نفرض شريعة يسوع، وقد توصلنا إلى تحقيق ذلك في الصلوات، وفي المواكب، وفي الاحتفالات الدينية، ولكن ليس في الروح».

تحدث عن يوكاتان، حيث شيدوا كاتدرائيات ضخمة لإخفاء الأهرامات الوثنية، دون أن يدركوا أن الوطنيين يأتون إلى الصلاة لأنهم مازالوا يرون هياكلهم تحت مذابح الفضة. تحدث عن خليط الدماء

الذي أوجدوه منذ الفتح: دم اسباني مع الدماء الهندية، ودم هؤلاء وأولئك مع دماء زنوج من كل صنف، وحتّى دماء مسلمي السودان الغربي، وتساءل عما إذا كانت مملكة الرب تتسع لمثل هذه العلاقات غير المنتظمة. وعلى الرغم من اضطراب تنفسه وسعاله كشيخ مسن، فقد واصل الكلام دون أن يمنح الوالي استراحة:

«ماذا يمكن أن يكون هذا كله سوى فخ من العدو؟»

قال الوالي الذي بدا شاحباً:

«إن خيبة أمل نيافتكم بالغة الخطورة».

فقال المطران بطيبة شديدة:

«لاتنظروا إلى الأمر هكذا ياصاحب السعادة. إنني أحاول أن أبين بجلاء مانحتاجه من قوة الايمان لجعل هذه الشعوب جديرة بتضحيتنا».

فاستعاد الوالي الإمساك بالخيط:

«إلى حيث تصل مداركي، فإن شكوك رئيسة الدير ذات طابع عملي. إنها تفكر بأنه قد تكون لدى أديرة أخرى ظروفاً أفضل من أجل حالة بمثل هذه الصعوبة».

قال المطران:

«اعلم ياصاحب السعادة إذن أننا اخترنا دير سانتا كلارا دون تردد بسبب جَلَد خوسيفا ميراندا وكفاءتها وقدرتها. والرب يعرف أننا على حق».

فقال الوالي:

«اسمح لي أن أنقل إليها هذا الكلام».

قال المطران:

«إنها تعرفه جيداً. ولكن ما يحيرني هو سبب عدم جرأتها على تصديق ذلك».

ما إن قال هذه الكلمات حتى أحس بنوبة ربو وشيكة، فاستعجل انتهاء الزيارة. قال إنه ينوي إعداد مذكرة لرئيسة الدير يعدها فيها بأن يحل المسـألة بأشـد المحبـة الرعوية حرارة حين تمنحه حالته الصحية الفرصة. شكره الوالي، ووضع حداً للزيارة بلباقته الشخصية. فقد كان هو نفسه يعاني كذلك من ربو مزمن، فعرض على المطران أن يقدم له أطباءه. لكن هذا الأخير لم يوافق، وقال:

«كل مايتعلق بي أصبح بين يدي الرب، إنني في السن التي ماتت فيها السيدة العذراء».

وعلى العكس من تحية الاستقبال، كان الوداع بطيئاً واحتفالياً. فقد سار ثلاثة رهبان، بينهم ديلاورا، برفقة الوالي بصمت في الممرات الكئيبة حتى البوابة الرئيسية، حيث كان حراس الوالي يكبحون المتسولين بسياج من الرماح المتقاطعة. وقبل أن يصعد الوالي إلى العربة، التفت نحو ديلاورا وصوب إليه إصبعه السبابة بإشارة لاتقبل الاستئناف، وقال له: «لاتجعلني أنساك».

كانت عبارة غير منتظرة ومبهمة تماماً بحيث لم يتمكن ديلاورا من الرد عليها إلا بانحناءة احترام.

توجه الوالي إلى الدير ليخبر رئيسته بنتائج الزيارة. بعد ساعات من ذلك، حين كان يضع قدمه في الركاب للرحيل، رفض العفو عن مارتينا

لابوردي على الرغم من إلحاح زوجته، لأن ذلك بدا له سابقة سيئة بالنسبة لمحكومين بجناية ضد جلال الحياة الإنسانية ممن وجدهم في السجون.

بقي المطران منحنياً إلى الأمام، محاولاً إخماد صفير أنفاسه بعينين مغمضتين، إلى أن رجع ديلاورا. كان مساعدوه قد انسحبوا على رؤوس أصابعهم وبقيت القاعة غارقة في السكون. تطلع المطران فيما حوله، ورأى المقاعد الفارغة المصفوفة بمحاذاة الجدار، وكايتانو وحده في الغرفة. سأله بصوت خافت جداً:

«هل رأينا رجلاً بمثل هذه الطيبة من قبل؟».

رد ديلاورا بإيماءة غامضة. فانتصب المطران بحركة شاقة وبقي مستنداً إلى ذراع الأريكة إلى أن سيطر على تنفسه. لم يرغب في تناول العشاء. سارع ديلاورا إلى إشعال قنديل ليضيء له الطريق إلى غرفة نومه.

قال المطران:

«لقد كنا سيئين مع الوالي».

فسأله ديلاورا:

«وهل كان هناك سبب لنكون جيدين. فباب المطران لايطرق دون إشعار رسمي مسبق».

لم يوافقه المطران على قوله، وأعلمه بذلك بحدة قائلاً: «بابي هو باب الكنيسة، وقد تصرف مثل مسيحي من الأزمنة الماضية. وكنت أنا المسيء إليه بسبب مرض صدري، ولابد لي من عمل شيء للتعويض عن إساءتي». وما إن وصلا باب غرفة النوم حتى كان قد بدّل نبرة صوته

وموضوع حديثه، وودع ديلاورا بتربيتة أليفة على كتفه، وقال له:
«صلِّ من أجلي هذه الليلة. فأنا أخشى أن تكون ليلة طويلة جداً».

وبالفعل، فقد أحس بأنه يموت في نوبة الربو التي هجس بها أثناء الزيارة. ولأن مقيئاً تارياً ومسكِّنات شديدة أخرى لم تخفف عنه، فقد اضطروا إلى فصد دمه بصورة مستعجلة. وعند الفجر كان قد استعاد مزاجه الطيب.

أما كايتانو الذي بقي مسهداً في قاعة المكتبة المجاورة، فلم يعلم شيئاً. كان قد بدأ صلوات الصبح حين أخبروه بأن المطران ينتظره في غرفة نومه. وجده في السرير يتناول فطوره المؤلف من فنجان شيكولاته مع خبز وجبن، ويتنفس مثل كير جديد وبروح مندفعة. وكانت مجرد رؤيته كافية لجعل كايتانو يدرك أنه قد اتخذ قراراته.

وهذا ما كان بالفعل. فخلافاً لرغبة مديرة الدير، ستبقى سييرفا ماريا في دير سانتا كلارا، وسيواصل الأب كايتانو ديلاورا علاجها متمتعاً بثقة المطران المطلقة. ولن تبقى خاضعة لنظام السجن، مثلما كانت حتى ذلك الحين، ويجب أن تتمتع بالفوائد العامة التي يتمتع بها سكان الدير. كان المطران يمتدح التقارير والمحاضر، ولكن افتقاره إلى الصرامة كان يتناقض مع وضوح العملية، بحيث يتوجب على الراقي أن يتصرف حسب وجهة نظره الخاصة. وأمر ديلاورا أخيراً بأن يذهب لزيارة المركيز باسمه مع التمتع بصلاحيات من أجل حلّ كل مايجب حله، ريثما يتيح له الوقت والصحة فرصة الاجتماع به.

وأنهى كلامه قائلاً:

«لاوجود لتعليمات أخرى. فليباركك الرب».

هرع كايتانو إلى الدير بقلب تائه، ولكنه لم يجد سييرفا ماريا في زنزانتها. كانت في قاعة الاحتفالات، مزينة بمجوهرات حقيقية وشعرها مسدلٌ على قدميها، تجلس بوقارها البديع كزنجية لكي يرسمها مصور شهير من بطانة الوالي. وكان تعقلها في الانصياع للفنان لايقل إثارة للإعجاب عن جمالها.. استولى الذهول على كايتانو. وفيما هو جالس في الظل، حيث يراها دون أن تراه، وجد مايكفي من الوقت لكي يمحو أية شكوك متبقية في قلبه.

في ساعة صلاة الغروب كانت الصورة قد انتهت. تأملها الرسام عن بعد، ووجه ضربتين أو ثلاث ضربات نهائية من فرشاته، وقبل أن يضع توقيعه طلب من سييرفا ماريا أن ترى الصورة. كانت مطابقة لها، تمثلها واقفة على غيمة، وسط بلاط شياطين مذعنين. تأملت اللوحة دون تسرع وتعرفت على نفسها في ألق سنوات عمرها. وقالت أخيراً:

«إنها مثل مرآة».

فسألها الرسام:

«حتى مع الشياطين؟».

فقالت:

«إنهم هكذا».

بعد انتهاء الرسم، رافقها كايتانو إلى الزنزانة، لم يكن قد رآها تمشي من قبل، وكانت تفعل ذلك بالظرافة والسهولة التي ترقص بها. ولم يكن قد رآها من قبل بثياب غير رداء السجينة، وكانت الثياب الملكية

التي ترتديها تمنحها سناً وأناقة تكشف له إلى أي مدى أصبحت امرأة. ولم يكونا قد مشيا معاً من قبل، وقد فتنته البراءة التي ترافقه بها.

كانت الزنزانة مختلفة بفضل مواهب الإقناع التي يتمتع بها الوالي وزوجته. فقد تمكنا حين زارا رئيسة الدير لوداعها، من إقناعها بمبررات المطران الطيبة. كانت الفرشة في الزنزانة جديدة، والشراشف من الكتان والوسائد من الريش، كما وضعوا فيها أوانٍ للنظافة اليومية ولغسل الجسد. وكان ضوء البحر يدخل من النافذة التي نزعت عنها العوارض الخشبية ويتألق على الجدران حديثة الطلاء بالكلس. وحيث أن الطعام كان هو نفسه الذي يقدم لراهبات المحتبس المحرم، فإنه لم تعد هناك حاجة لإحضار أي شيء من الخارج، لكن ديلاورا كان يرتب الأمور دوماً بطريقة تمكنه من تهريب بعض المأكولات الطيبة التي تباع عند بوابات المدينة.

أرادت سيرفا ماريا أن يشاطرها وجبتها، فاكتفى ديلاورا بقطعة واحدة من البسكويت المحمص الذي كانت تقوم عليه سمعةِ الراهبات الكلاريات. وبينما هما يأكلان، قالت بصورة عرضية:

«لقد تعرفت على الثلج».

لم يندهش كايتانو. فقد جرى الحديث في زمن آخر عن والٍ أراد إحضار الثلج من جبال البيرنيه لكي يعرفه سكان البلاد الأصليون، ذلك أنه كان يجهل أننا نملك الثلج داخل البحر تقريباً، في جبال سييرا نيفادا دي سانتا مارتا. وربما استطاع الوالي الجديد دون رودريغو دي بوين لوثانو أن يحقق تلك المأثرة بفنونه المستجدة.

قالت الطفلة:

«لا. لقد كان ذلك في الحلم».

وروت له حلمها: كانت تجلس وراء نافذة يتساقط أمامها ثلج غزير، بينما هي تنتزع من عنقود عنب في حضنها حبة بعد أخرى وتأكلها. أحس ديلاورا بخفقة رعب. وارتعش مع اقتراب سماعه الجواب الأخير، وتجرأ على سؤالها:

«وكيف انتهى الحلم؟».

فقالت سييرفا ماريا:

«أخاف ذكر ذلك».

ولم يكن بحاجة إلى سماع المزيد. أغمض عينيه وصلى من أجلها. وعندما انتهى كان شخصاً آخر.

قال لها:

«لاتقلقي. أعدك بأن تكوني حرة وسعيدة عما قريب بنعمة الروح القدس».

لم تكن بيرناردا قد عرفت حتى ذلك الحين بأن سييرفا ماريا موجودة في الدير. وقد علمت بذلك صدفة تقريباً في إحدى الليالي حين وجدت دولسي أوليفيا تكنس البيت وترتبه، وأخطأت في التعرف عليها في واحدة من تهيؤاتها. وللبحث عن تفسير عقلاني لما حدث، راحت تفتش البيت غرفة غرفة، وانتبهت أثناء جولتها إلى أنها لم تر سييرفا

ماريا منذ بعض الوقت. أخبرتها كاريداد دل كوبري بما تعرفه: «لقد قال لنا السيد المركيز إنها ستذهب بعيداً جداً ولن نراها ثانية». ولأن النور كان مضاء في غرفة زوجها، فقد دخلت بيرناردا دون أن تطرق الباب.

كان مؤرقاً في أرجوحة النوم، بين دخان روث البهائم الذي يحترق ببطء لطرد البعوض. رأى المرأة الغريبة المتغيرة الهيئة في ردائها الحريري، ففكر أيضاً في أنها رؤيا، لأنها كانت شاحبة وذاوية، وتبدو كأنها قادمة من مكان بعيد جداً. سألته بيرناردا عن سييرفا ماريا.

فقال: «إنها ليست هنا منذ أيام».

ففهمت كلامه في أسوأ معانيه، وكان عليها أن تجلس على أول كرسي وجدته لتلتقط أنفاسها.

قالت:

«تعني أن ابرينونثيو قد عمل ما كان يجب عمله».

فرسم إشارة الصليب وقال:

«فلينجنا الرب!».

روى لها الحقيقة. وقد اهتم بأن يوضح لها أنه لم يخبرها بذلك من قبل لأنه أراد أن يعاملها وفق ما تريده هي، أي كما لو أنها ميتة. أصغت بيرناردا إليه دون أن ترمش وباهتمام لم يستحقه منها طوال اثنتي عشرة سنة من الحياة المشتركة.

قال المركيز:

«كنت أعرف أن ذلك سيكلفني حياتي، ولكن مقابل حياتها».

فتنهدت بيرناردا: «أنت تعني أن فضيحتنا أصبحت الآن على كل

لســان». رأت على رموش زوجها وميض دمعة، وتعالت ارتعاشـة من أحشـائها. لم يكن الموت هو السبب هذه المرة وإنما اليقين المحتم بما سيحـدث عـاجلاً أو آجلاً. ولم تكن مخطئـة. فقد نهض المركيز من أرجوحـة النوم بقواه الأخيرة، وانهار أمامهـا وانفجر في بكـاء شـديد لعجوز لا نفع فيه. استسلمت بيرناردا لنار دموع الرجل التي انزلقت إلى منبت فخـذيهـا من خـلال ثوبهـا الحريري. واعـترفت، رغم كل كراهيتها لسييرفا ماريا، بأنها تشعر بالراحة حين تعلم أنها ماتزال على قيد الحياة. قالت:

«لقد فهمت كل شيء على الدوام، باستثناء الموت».

عادت إلى حبس نفسها في غرفتها والعيش على الدبس والكاكاو، وحـين خرجت بعـد أسبوعين كانت جثـة تائهة. لاحظ المركيز حركة استعداد للسفر منذ الصباح الباكر، ولكنه لم يعر الأمر اهتماماً. وقبل أن تشتد حرارة الشمس، رأى بيرناردا تخرج من بوابة الفناء على متن بغلة وديعة، تتبعها بغلة أخرى محملة بالأمتعة. لقد خرجت مرات كثيرة من قبل بهذه الطريقة، دون بغالين أو عبيد، ودون أن تودع أحداً أو تقدم أي تـبرير. ولكن المركيز عرف في ذلك اليوم أنها خارجة ولن تعود، ففضلاً عن صندوق أمتعتها الذي تحمله معها في كل مرة، كانت تحمل يومذاك الجرتين المملوءتين بالذهب الخالص اللتين كانت تدفنهما تحت السرير.

وبينما هو مستلق دون هم في أرجوحة النوم، خاف المركيز أن يقدم العبيد على طعنه بالسكاكين، فمنعهم من الدخول إلى البيت حتى في

النهار. وهكذا، عندما ذهب كايتانو ديلاورا لزيارته بأمر من المطران، كان عليه أن يدفع البوابة ويدخل دون أن يدعوه أحد، لأن أحداً لم يرد على طرقات المقرعة. هاجت كلاب الحراسة في أقفاصها، ولكنه واصل تقدمه. وفي البستان، كان المركيز ينام القيلولة بجلابية المسلمين والقبعة الطـليطـليـة وهو مغطى تماماً بأزهار البرتقال. تأمله ديلاورا دون أن يوقظه، فكان كأنه يرى سييرفا ماريا عاجزة ومقطعة إرباً من العزلة. استيقظ المركيز، وتأخر في التعرف عليه بسبب العصابة على عينيه. فرفع ديلاورا يده بأصابع ممدودة علامة السلام، وقال:

«ليحفظك الرب أيها السيد المركيز، كيف حالك؟..».

فقال المركيز:

«إنني هنا.. أتعفن».

أزاح بيد نحيلة شباك عنكبوت القيلولة واعتدل جالساً في أرجوحة النوم. اعتذر كايتانو لأنه دخل دون أن يؤذن له فأوضح له المركيز أن أحداً لم يعد يهتم بمقرعة الباب لأنه فقد عادة استقبال الزوار. تكلم ديلاورا بلهجـة وقورة: «السيد المطران مشغول جداً ومعتل الصحة من الربو، وقد بعثني ممثلاً له». بعد الانتهاء من البروتوكول الأولي، جلس إلى جوار أرجوحة النوم، واتجه مباشرة إلى القضية التي تحرقه من الداخل:

«أريد أن أخبرك بأنه قد عُهد إليّ بصحة ابنتك الروحية».

شكره المركيز وأراد أن يعرف كيف حالها.

فقال ديلاورا:

«جيدة. ولكنني أريد مساعدتها لتكون أفضل».

شرح له معنى ومنهج التعزيم. وحدثه عن القدرة التي منحها يسوع لتلاميذه كي يطردوا الأورواح النجسة من الأجساد، ويداووا السقم والوهن. روى له الدرس الانجيلي عن لجئون والخنازير الألفين المسكونة بالشياطين. ومع ذلك، فقد كان الشيء الأساسي هو التوصل إلى معرفة ما إذا كانت سييرفا ماريا مسكونة بالشيطان فعلاً. هو لا يظن ذلك، ولكنه بحاجة إلى مساعدة المركيز لكي يبدد أي شك. وقال له إنه يريد أن يعرف قبل كل شيء كيف كانت ابنته قبل أن تدخل الدير.

قال المركيز:

«لست أدري. أشعر وكأنني أعرفها أقل كلما ازدادت معرفتي لها».

كانت تعذبه خطيئته بتركها لمصيرها في فناء العبيد. وإلى هذا الأمر عزا اعتصامها بالصمت الذي قد يستمر شهوراً في بعض الأحيان، وانفجارات عنفها غير العقلاني، والمكر الذي كانت تسخر به من أمها بتعليقها في أعناق القطط الجلجل الذي كانت أمها تضعه في معصمها. وكان العائق الأكبر في التعرف عليها هو رذيلة الكذب التي تمارسها للمتعة.

قال ديلاورا:

«مثل الزنوج»..

فقال المركيز:

«الزنوج يكذبون علينا، ولكنهم لا يكذبون فيما بينهم».

وفي حجرة النوم، استطاع ديلاورا أن يميز بنظرة واحدة بين الأشياء الكثيرة التي كانت للجدة وأشياء سييرفا ماريا الجديدة: الدمى الحية،

وراقصات النوابض، وعلب الموسيقى.. وفوق السرير كانت الحقيبة الصغيرة التي حملها المركيز معه حين أخذها إلى الدير ماتزال مثلما أعدها هو نفسه. وكانت التيوربا المغطاة بالغبار ملقاة كيفما اتفق في أحد الأركان. أوضح المركيز أنها آلة موسيقية إيطالية مهجورة، وبالغ في وصف قدرة الطفلة على العزف عليها. ثم بدأ يضبط أوتارها وهو ساهٍ، ولم ينته إلى العزف عليها بذاكرة جيدة وحسب، وإنما أنشد كذلك الأغنية التي كان يغنيها مع سييرفا ماريا.

لقد كانت لحظة كاشفة. فقد قالت الموسيقى لديلاورا ما لم يصب المركيز في قوله عن ابنته. وقد تأثر هذا الأخير بدوره حتى أنه لم يستطع إنهاء الأغنية. فتنهد قائلاً:

« لا يمكنك أن تتصور كم كانت القبعة مناسبة لها».

انتقلت عدوى انفعاله إلى ديلاورا، فقال:

«أرى أنك تحبها كثيراً».

قال المركيز:

«لا يمكنك تصور مدى حبي لها. إنني أقدم روحي مقابل رؤيتها».

وأحس ديلاورا مرة أخرى بأن الروح القدس لا تفوته أدنى التفاصيل. فقال:

«لن يكون هناك ما هو أسهل من ذلك إذا استطعنا أن نثبت أنها غير مسكونة».

قال المركيز:

تحدث إلى ابرينونثيو. لقد قال منذ البدء إن سييرفا سليمة، ولكنه هو

وحده الذي يستطيع تفسير ذلك».

رأى ديلاورا مفترق طرقه. يمكن لابرينونثيو أن يكون هبة العناية الإلهية بالنسبة إليه، ولكن التحدث معه قد يؤدي إلى ورطة غير مرغوب فيها. وبدا أن المركيز قد قرأ ما يجول في ذهنه، فقال له:

«إنه رجل عظيم».

هز ديلاورا رأسه بحركة ذات مغزى وقال:

«أعرف ماتتضمنه ملفات محاكم التفتيش».

قال المركيز بإصرار:

«أي تضحية ستكون ضئيلة مقابل استعادتها». ولأن ديلاورا لم يبد أي رد فعل، فقد أضاف قائلاً:

«أرجوك أن تذهب إليه، حباً بالرب».

فقال ديلاورا وهو يشعر بجرح في قلبه:

«أتوسل إليك ألا تزيد من آلامي».

لم يعاود المركيز الإلحاح. تناول الحقيبة الصغيرة عن السرير، وطلب من ديلاورا أن يأخذها إلى ابنته قائلاً له:

«ستعرف على الأقل أني أفكر فيها».

هرب ديلاورا دون وداع. أخفى الحقيبة الصغيرة تحت عباءته ودثر نفسه بها، فقد كان المطر يهطل مدراراً. وتأخر في ملاحظة أن صوته الداخلي كان يردد أبياتاً متفرقة من أغنية التيوربا. أخذ يغنيها بصوت عالٍ بينما المطر يسوطه، وكررها عن ظهر قلب حتى النهاية. دلف إلى

حي الحرفيين إلى يسار الصومعة، وهو مايزال يغني، وطرق باب بيت ابرينونثيو.

بعد صمت طويل سمع صوت الخطوات العرجاء، والصوت نصف النائم:

«من الطارق!»

فقال ديلاورا:

«القانون!».

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي خطرت لذهنه كي لايذكر اسمه صارخاً. فتح ابرينونثيو الباب معتقداً أن الطارق هو من ممثلي الحكومة بالفعل، ولكنه لم يتعرف عليه. فقال ديلاورا: «أنا خازن مكتبة الأبرشية». أفسح له الطبيب الطريق في الدهليز المظلم، وساعده على خلع عباءته المبتلة. وسأله بأسلوبه الخاص وباللغة اللاتينية:

«في أي معركة فقدت عينك هذه؟».

فقص عليه ديلاورا بلاتينية كلاسيكية حادثة الكسوف، وأسهب في التفاصيل حول بقاء الداء بالرغم من أن طبيب المطران كان قد قال له إن وضع العصابة هو الشفاء المؤكد. ولكن ابرينونثيو لم يهتم إلا بنقاء لغته اللاتينية. فقال مذهولاً:

«إنه إتقان مطلق. من أين لك هذا؟».

قال ديلاورا:

«من ابيلا».

فقال ابرينونثيو:

«وهذا أمر يستحق مزيداً من التقدير».

جعله يخلع رداءه الكهنوتي ونعليه، ووضعهما جانباً ليجفا، وألقى عليه عباءة المثقفين الخاصة به فوق بنطاله الداخلي الملتصق بجسده. ثم نزع بعد ذلك العصابة عن عينه وألقى بها إلى القمامة قائلاً: «العيب الوحيد في هذه العين هو أنها ترى أكثر مما يجب». كان ديلاورا مستغرقاً في تقدير كمية الكتب المرصوصة في الصالة. انتبه ابرينونثيو إلى ذلك، فقاده إلى مخبره حيث كانت توجد كميات أكبر بكثير من الكتب، موضوعة في خزائن تصل حتى السقف.

هتف ديلاورا:

«أيها الروح القدس! هذه مكتبة بيتراركا».

فقال ابرينونثيو:

«بل أكثر بنحو مئتي كتاب».

تركه يقلب الكتب بفضول على هواه. كانت هناك نسخ فريدة يمكن لها أن تقود إلى السجن في إسبانيا. وقد تعرف ديلاورا على تلك الكتب وتصفحها بشغف وأعادها إلى أماكنها على الرفوف وهو يشعر بغصة في روحه. وفي مكانة خاصة، جنباً إلى جنب مع الكتاب الخالد فراي خيروندو، عثر على فولتير كاملاً بالفرنسية، وعلى ترجمة لاتينية لكتابه الرسائل الفلسفية.

قال مازحاً:

«فولتير باللاتينية أمر أشبه بالهرطقة».

فأخبره ابرينونثيو بأن من ترجمه هو راهب من كويمبرا كان يملك

ترف إخراج كتب نادرة لتسلية الحجاج. وبينما كان ديلاورا يتصفح الكتاب، سأله الطبيب عما إذا كان يعرف اللغة الفرنسية.

فقال ديلاورا باللاتينية:

«لا أتكلمها، ولكنني أقرؤها». وأضاف دون حياء زائف: «وكذلك الأمر بالنسبة لليونانية والإنكليزية والإيطالية والبرتغالية وقليل من الألمانية».

فقال ابرينونثيو:

«إني أسألك من أجل ماكتبه فولتير. إنه نثر كامل الإتقان».

قال ديلاورا:

«وهذا هو أكثر مايؤلمنا. من المؤسف أنه فرنسي»..

قال ابرينونثيو:

«تقول هذا كونك إسبانياً».

قال ديلاورا:

«بعد أن بلغت هذه السن، وبوجود كل هذا التقاطع في الدماء، لم أعد أعرف على وجه اليقين من أين أنا. ولا من أكون».

فقال ابرينونثيو:

«لا أحد يعرف ذلك في هذه الممالك. وأعتقد أنهم يحتاجون لقرون كي يعرفوا».

كان ديلاورا يحادثه دون أن يتوقف عن تفحص المكتبة. وفجأة مثلما يحدث له بكثرة، تذكر الكتاب الذي صادره منه مدير الدير حين كان في الثانية عشرة، والذي لايتذكر منه سوى حادثة كان يرويها على امتداد

حياته لكل من يستطيع مساعدته.

سأله ابرينونثيو:

«ألا تذكر العنوان؟».

فقال ديلاورا:

«لم أعرفه مطلقاً. وأنا مستعد لإعطاء أي شيء مقابل معرفة النهاية».

ودون أن يعلن عن العنوان، وضع الطبيب أمامه كتاباً تعرف عليه منذ النظرة الأولى. كان طبعة إشبيلية قديمة لرواية كتب اماديس دي غاولا الأربعة. قلبه ديلاورا وهو يرتعش، ولاحظ أن الكتاب يوشك أن يتلف نهائياً. وأخيراً تجرأ على القول:

«هل تعرف أنه كتاب ممنوع؟».

فقال ابرينونثيو:

«مثل أفضل الروايات في هذه العصور. ولا يطبعون بدلاً منها إلا مقالات لرجال متضلعين في العلم. ما الذي سيقرأه الفقراء اليوم إذا هم لم يقرأوا سراً روايات الفروسية؟»..

قال ديلاورا:

«هناك كتب أخرى. فمئة نسخة من الطبعة الأولى من الكيخوته قرئت هنا في السنة نفسها التي طبعت فيها».

قال ابرينونثيو:

«لايمكن القول إنها قرئت. بل مرت من مراكز الجمرك إلى مختلف أنحاء هذه الممالك».

لم يوله ديلاورا اهتماماً، لأنه توصل إلى التعرف على نسخة اماديس

دي غاولا الثمينة قال:

«هذا الكتاب اختفى منذ تسع سنوات من القسم السري في مكتبتنا ولم نجد له أثراً على الإطلاق».

قال ابرينونثيو:

«كان لابد لي من تصور ذلك. ولكن هنالك أسباب أخرى لاعتبار هذه النسخة تاريخية: لقد جرى تداولها من يد ليد طوال أكثر من سنة بين أحد عشر شخصاً على الأقل، وقد مات على الأقل ثلاثة منهم. إنني واثق من أنهم كانوا ضحية انطلاق غاز مجهول من الكتاب».

قال ديلاورا:

«من واجبي أن أشي بك إلى محكمة التفتيش».

فأخذ ابرينونثيو الأمر على محمل المزاح:

«وهل نطقت بهرطقة؟».

«أقول هذا لأني وجدت هنا كتاباً محظوراً ومن أملاك الغير، وأنت لم تبلغ عنه».

«هذا الكتاب وغيره كثير»، قال ابرينونثيو ذلك وهو يشير بحركة دائرية واسعة من إصبعه السبابة إلى خزائن كتبه المترعة. «ولكن، لو كان الأمر كذلك لكنت جئتني منذ زمن بعيد، ولكنت امتنعت بدوري عن فتح الباب لك». التفت نحوه، وأنهى كلامه بإرادة طيبة: «ولكنني سعيد بالمقابل لأنك جئتني الآن. إنني سعيد لمتعة اللقاء بك».

قال ديلاورا:

«إن المركيز جزع على مصير ابنته، وقد اقترح عليّ أن أحضر إلى هنا».

أجلسه ابرينونثيو قبالته، وغرقا كلاهما في فضاء الحديث، بينما كانت عاصفة قيامية ترج البحر. قدم الطبيب عرضاً ذكياً ومتضلعاً حول داء الكلب منذ نشوء البشرية، وحول أضراره التي لايمكن وقفها، وحول العجز الأزلي لعلم الطب عن منع تلك الأضرار. وقدم أمثلة مؤسفة عن الخلط منذ الأزل ما بين هذا الداء والمس الشيطاني، كما هو الحال في بعض أشكال الجنون والاضطرابات الروحية الأخرى. أما بالنسبة لسييرفا ماريا، فيبدو أنه بعد مرور مئة وخمسين يوماً تقريباً، لم يعد هناك احتمال لإصابتها بالداء. وأضاف ابرينونثيو، إن الخطر الوحيد القائم هو أن تموت مثل كثيرين غيرها تحت قسوة الراقين.

بدا لديلاورا أن العبارة الأخيرة تنطوي على المبالغة التي يتصف بها طب القرون الوسطى، ولكنه لم يناقشها، لأنها تخدم جيداً أدلته اللاهوتية بعدم وجود مس لدى الطفلة. قال إن اللغات الافريقية الثلاث التي تتحدث بها سييرفا ماريا والمختلفة تماماً عن اللغتين الاسبانية والبرتغالية، لاتحمل أدنى شحنة شيطانية من تلك التي ينسبونها إليها في الدير. وقد كانت هناك شواهد عديدة على أن لدى الطفلة قوة عضلية بارزة، ولكن لا وجود لدليل واحد على أنها قوة خارقة للطبيعة. كما لم يثبت أن لها قدرات سحرية أو على التنبؤ بالمستقبل، وهما ظاهرتان تصلحان في الواقع أيضاً لأن تكونا دليلاً ثانوياً على القداسة. ومع ذلك، فقد سعى ديلاورا إلى الحصول على دعم

زملاء لاهوتيين بارزين، بل ودعم طوائف أخرى، فلم يتجرأ أحد على الوقوف في مواجهة محاضر الدير أو معارضة الرأي الشعبي. ولكنه كان واعياً بأنه لن يكون بوسع آرائه أو آراء ابرينونثيو أن تقنع أحداً، وأن اجتماعهما معاً سيكون أقل جدوى.

قال:

«سنكون، أنا وأنت، ضد الجميع».

فقال ابرينونثيو:

«لهذا فوجئت بمجيئك إلي. فأنا لست سوى قطعة مرغوبة بجشع في مزايدة الصيد التي تشنها محاكم التفتيش».

قال ديلاورا:

«الحقيقة أنني لاأعرف سبب مجيئي بالتحديد. اللهم إلا إذا كان الروح القدس قد فرض علي هذه المخلوقة لاختيار صلابة إيماني».

كان قوله هذا كافياً ليخلصه من انحباس الزفرات التي كانت تثقل عليه. نظر ابرينونثيو إلى عينيه، حتى أعماق الروح، وأدرك أنه يوشك على البكاء. فقال له بنبرة مُسكِّنة:

«لاتعذب نفسك عبثاً. ربما كنت قد جئت لأنك بحاجة إلى التحدث عنها فقط».

أحس ديلاورا بانه عارٍ. فنهض، وبحث عن اتجاهات الباب، ولم يهرب مجفلاً لأنه كان دون نصف ملابسه. ساعده ابرينونثيو على ارتداء ثيابه التي مازالت مبللة، بينما كان يحاول تأخيره لمواصلة الحديث. قال له: «إنني مستعد للتحدث معك دون توقف حتى القرن القادم». حاول إبقاءه

بقارورة قطرة شفافة للعيون لكي يشفي ثبات الكسوف في عينه، أعاده من البـاب ليبحث عن الحقيبـة الصغـيرة التي نسيها في مكان ما من البيت. ولكن، كان يبدو على ديلاورا أنه ضحية ألم قاتل. شكر الطبيب على تلك الأمسية، وعلى مساعدته الطبية، وقطرة العيون، ولكن الشيء الوحيد الذي استطاع أن يقدمه هو الوعد بالمجيء مرة أخرى والبقاء وقتاً أطول.

لم يكن قادراً على تحمل حاجته الملحة في رؤية سييرفا ماريا. ولم يلاحظ إلا وهو عند الباب بأن الظلام قد خيم. كان المطر قد انقطع، ولكن مجاري التصريف كانت ماتزال طافحة بعد العاصفة، فمشى في منتصف الشارع حيث الماء يصل إلى كاحليه. حاولت الراهبة البوابة في الدير أن تمنعه من الدخول لأن موعد حظر التجول قد اقترب. فأزاحها جانباً:

«أوامر السيد المطران».

استيقظت سيـيرفا ماريا مذعورة ولـم تتعرف عليه في الظلام. ولـم يعرف هو كيف يوضح لها سبب مجيئه في هذا الوقت المختلف تماماً عن المعتاد، ثم تلقف الذريعة بسرعة:

«أبوكِ يريد رؤيتك».

تعرفت الطفلة على الحقيبة، فاتقد وجهها غضباً وقالت:

«أما أنا فلا أريد».

فسألها وهو ذاهل عن السبب.

فقالت:

«لأني لاأريد. إنني أفضل الموت».

حاول ديلاورا أن يفك الحزام عن كاحلها السليم معتقداً أن ذلك سيرضيها. فقالت:

«دعني. لاتلمسني».

لم يتسجب لها، فوجهت الطفلة دفقة من البصاق إلى وجهه. بقي متماسكاً، وأدار لها خده الآخر. واصلت سييرفا ماريا البصاق عليه. وأعاد هو تبديل خده ثملاً ببخار النشوة المحرمة الذي كان يتصاعد من أعماقه. أغمض عينيه وصلى بروحه بينما كانت هي تواصل البصق عليه بقسوة تزداد مع ازدياد نشوته، إلى أن أدركت عدم جدوى غضبها. عندئذ شهد ديلاورا المشهد الرهيب لمسكونة حقيقية. تلوى شعر سييرفا ماريا من تلقاء ذاته مثل أفاعي ميدوزا، وخرج من فمها لعاب أخضر وسلسلة شتائم بلغات الوثنيين. فشهر ديلاورا صليبه، وأدناه من وجهها وصرخ مذعوراً:

«أخرج من هنا كائناً من تكون يا دابة الجحيم».

استثارت صرخاته صرخات الطفلة التي كادت تقطع الأحزمة. هرعت الحارسة مذعورة وحاولت السيطرة عليها، ولكن مارتينا وحدها هي التي تمكنت من ذلك بأساليبها السماوية. وخرج ديلاورا هارباً.

كان المطران قلقاً لأنه لم يأت إلى قراءة العشاء. رأى ديلاورا نفسه يطفو في سحابة شخصية لايهمه فيها أي شيء من هذا العالم أو العالم الآخر، إلا بقدر علاقته بالصورة المرعبة لسييرفا ماريا المسكونة بالشيطان. هرب إلى المكتبة ولكنه لم يستطع القراءة. صلى بإيمان محتدم،

غنى أغنية التيوربا، بكى بدموع زيت حارقة كوت أعماقه. فتح حقيبة سييرفا ماريا ووضع الأشياء التي فيها واحداً واحداً على السرير، تعرف عليها، شمها بشهوة جسدية شرهة، أحبها، وتحدث إليها بمقطّعات فاحشة سداسية الأوزان إلى أن لم يعد قادراً على المزيد. عندئذ عرى صدره، وأخرج من درج طاولة العمل سوط تعذيب النفس ذا الأطراف الحديدية الذي لم يتجرأ على لمسه من قبل، وبدأ يسوط نفسه بحقد لايرتوي ودون أن يمنح نفسه لحظة راحة، لكي يخرج من أعماقه آخر أثر لسييرفا ماريا.

وقد وجده المطران الذي بقي يفكر فيه، يتمرغ في بركة من الدم والدموع. فقال له ديلاورا:

«إنه الشيطان يا أبتاه. أكثر الشياطين فظاعة».

خمسة

استدعاه المطران إلى جلسة مشاورة في مكتبه، واستمع دون تأملات إلى اعترافه الصريح والكامل، مدركاً بأنه لايقوم بطقس ديني وإنما بمسعى قضائي. وكانت نقطة الضَعف الوحيدة التي أبداها حياله هي الإبقاء على خطيئته الحقيقية طي الكتمان، ولكنه جرّده من مهماته وامتيازاته دون أن يقدم أي تفسير علني، وأرسله للخدمة كممرض للمجذومين في مستشفى «محبة الرب». توسل هو أن يمنح عزاء تقديم قداس الساعة الخامسة للمجذومين، فمنحه المطران ذلك. جثا بإحساس عميق بالراحة، وصليا معاً «أبانا الذي في السموات». ثم باركه المطران وساعده على النهوض.

«ليرحمك الرب». قال له ذلك ومحاه من قلبه.

وحتى بعد أن بدأ كايتانو تنفيذ العقوبة المفروضة عليه، تدخل لمصلحته عدد من ذوي المناصب العليا في الأبرشية، ولكن المطران لم يتراجع. فنّد النظرية القائلة بأن الراقين يصابون في النهاية بمس من الشياطين الذين يعزمون عليهم. وكانت حجته الأخيرة هي أن ديلاورا لم يقتصر على عدم مواجهة الشياطين بسلطة يسوع الحاسمة، بل انساق إلى سفاهة الحوار معهم حول شؤون الايمان. وقال المطران إن ذلك هو

ما ورط روحه ووضعه على حافة الهرطقة. فكانت المفاجأة أكبر، لأن المطران بدا قاسياً جداً مع رجله الثقة بسبب خطيئة لايكاد التكفير عنها يستحق، في أبعد الحدود، أكثر من المثول أمام مجمع كنسي مغلق.

كانت مارتينا قد تولت شؤون سييرفا ماريا بتفان مثالي. وكانت هي أيضاً مغمومة لرفض الوالي العفو عنها، لكن الطفلة لم تنتبه إلى ذلك حتى مساء أحد الأيام وهما تطرزان على الشرفة، حين رفعت نظرها ورأتها مستحمة بالدموع. لم تخف مارتينا قنوطها:

«أفضل الموت على مواصلة الاحتضار في هذا الحبس».

وقالت إن أملها الوحيد هو في صفقات سييرفا ماريا مع شياطينها. فهي تريد أن تعرف من هم، وكيف هم، وكيف تتفاوض معهم. عددت الطفلة أسماء ستة منهم، وحددت مارتينا هوية أحدهم على أنه شيطان افريقي كان قد ضرب بيت والديها. وهكذا برزت لها بارقة أمل جديدة.

«أريد أن أتحدث معه»، قالت ذلك ثم حددت رسالتها بدقة: «مقابل روحي».

استمرأت سييرفا ماريا الحيلة، وقالت: «إنه لايتكلم. ينظر المرء إلى وجهه فيعرف مايقوله». ووعدتها بكل جدية بأن تخبره لتلتقي معه في الزيارة القادمة.

أما كايتانو من جهته، فقد أخضع نفسه بذلّ لظروف المستشفى المشينة. كان المجذومون الذين هم في حالة موت شرعي، ينامون على الأرض في أكواخ من سعف النخيل ذات أرضية ترابية ممهدة. وكثيرون منهم كانوا يجرجرون أنفسهم قدر استطاعتهم. وكانت أيام الثلاثاء،

وهي أيام العلاج العام، منهكة تماماً. وقد فرض كايتانو على نفسه التضحية التكفيرية بغسل أجساد المرضى الأقل قوة في معالف الاسطبل. وكان يقوم بهذا العمل في يوم الثلاثاء الأول لبدء تكفيره، بالوقار الكهنوتي المختزل إلى رداء الممرض الخشن، حين ظهر ابرينونثيو على صهوة الحصان الأشقر الذي أهداه إليه المركيز.

سأله:

«كيف حال عينك؟».

لم يتح له كايتانو الفرصة للتحدث عن نكبته أو إبداء الشفقة على حالته. شكره على قطرة العيون التي محت بالفعل صورة الكسوف عن شبكية عينه.

فقال له ابرينونثيو:

«ليس هناك مايستحق الشكر. لقد أعطيتك أفضل دواء نعرفه لعلاج انبهار البصر الشمسي: إنه قطرات ماء المطر».

دعاه لزيارته. فأوضح له كايتانو أنه لايستطيع الخروج إلى الشارع دون إذن. فلم يول ابرينونثيو الأمر اهتماماً، وقال له: «إذا كنت تعرف نقاط ضعف هذه الممالك، فإنك ستعرف أن القوانين فيها لاتطبق إلا لثلاثة أيام بعد صدورها». وضع مكتبته تحت تصرفه لكي يواصل دراسته ريثما تتم محاكمته. سمعه كايتانو باهتمام، ولكن دون أية آمال.

وانتهى ابرينونثيو إلى القول وهو يهمز حصانه:

«سأترك لكربك. ولكن، ليس ثمة إله خلق موهبة مثل موهبتك لتهدر في تحميم المجذومين».

في يوم الثلاثاء التالي أحضر له هدية هي كتاب الرسائل الفلسفية باللغـة اللاتينية. قلّبه كايتانو، وتشممه من الداخل، وقدّر قيمته. لقد أحس بأنه كلما ازداد تقديره لابرينونثيو أصبح فهمه له أقل.

قال:

«أرغب في أن أعرف سبب تواطئك معي إلى هذا الحد».

فقال ابرينونثيو:

«لأننا معشر الملحدين لانستطيع العيش دون اللاهوتيين. إن المرضى يعهدون إلينـا بأجســادهم، ولكن ليس بأرواحهم، ونحن نمضي مثل الشيطان، منازعين الرب تلك الأرواح».

قال ديلاورا:

«هذا لايتلاءم مع معتقداتك».

قال ابرينونثيو:

«أنا نفسي لاأعرف ماهي معتقداتي».

قال ديلاورا:

«محكمة التفتيش تعرف ذلك».

وعلى العكس مما يمكن أن يخطر في البال، أثار ذلك السهم حماسة ابرينونثيو. فقال له: «تعال إلى بيتي لنناقش ذلك على مهل. أنا لاأنام أكثر من ثلاث ساعات في الليل، وتكون على فترات متقطعة، لذا فإن أي وقت يكون مناسباً» ثم همز الحصان ومضى.

وسرعان ما أدرك كايتانو أن السلطة العظيمة لاتضيع جزئياً، وإنما دفعة واحدة. فالأشخاص أنفسهم الذين كانوا يحتفون به من قبل لمكانته

ونفوذه صاروا يتحاشونه وكأنه مجذوم. وابتعد عنه أصدقاؤه في الآداب والفنون الدنيوية حتى لايصطدموا بمحكمة التفتيش. أما بالنسبة له فكان كل ذلك سيان. فلم يكن في قلبه متسع إلا لسييرفا ماريا، ولم تكن عواطفه تكفي لذلك. كان مقتنعاً بأنه لاوجود لمحيطات ولا لجبال، ولا لقوانين أرضية أو سماوية، ولا لأي سلطة جهنمية يمكنها أن تفرقهما.

في إحدى الليالي، وبإلهام مفرط في عدم الاتزان، هرب من المستشفى ليتسلل إلى الدير بأي طريقة، كان للدير أربع بوابات. البوابة الرئيسية الدوارة؛ وبوابة أخرى بالحجم نفسه من جهة البحر، وبوابتان صغيرتان للخدم. وكان اجتياز إحدى البوابتين الرئيسيتين مستحيلاً. استطاع كايتانو بسهولة أن يحدد من الشاطئ نافذة سييرفا ماريا في جناح السجن، لأنها النافذة الوحيدة غير المسوسة. تفحص المبنى شبراً شبراً من الشارع وهو يبحث دون جدوى عن أي فجوة يمكنه التسلل منها.

كان على وشك الاستسلام لليأس عندما تذكر النفق الذي كان الأهالي يموّنون منه الدير أثناء فرض الحصار عليه. كانت الأنفاق في الثكنات والأديرة شائعة جداً في ذلك العصر. وكان هناك ما لايقل عن ستة أنفاق معروفة في المدينة، وقد اكتشفت مع مرور السنوات أنفاق أخرى فيها صفوف من أطباق مشاعل الإنارة كما في الروايات المتسلسلة. وقد دله مجذوم كان يعمل حفاراً للقبور على ضالته: مجرور تصريف مهجور يصل بين الدير وقطعة أرض مجاورة كانت توجد فيها في القرن السابق مقبرة الراهبات الكلاريات الأوائل. وهو يخرج تحت جناح السجن مباشرة، وقباله جدار عال وخشن يبدو أنه لاسبيل إلى اجتيازه.

ولكن كايتانو تمكن مع ذلك من تسلقه بعد عدة محاولات محبطة، إذ أنه كان يؤمن بإمكانية الوصول إلى أي شيء بقدرة الصلوات.

كان جناح السجن راكداً في الفجر. ولمعرفته بأن الحارسة تنام في الخارج، فإنه لم يهتم إلا بمارتينا لابوردي التي كانت تشخر وباب زنزانتها موارباً. كان توتر المغامرة قد أبقاه مزعزعاً حتى تلك اللحظة، ولكن حين وجد نفسه أمام الزنزانة، وقفلها مفتوح في حلقته، انخلع قلبه دفع الباب برؤوس أصابعه، وغاب عن الوجود في الوقت الذي استمر فيه صرير المفصلات، ثم رأى سييرفا ماريا نائمة على نور الصليب المعلق. فتحت عينها فجأة، ولكنها تأخرت في التعرف عليه وهو بثوب ممرضي المجذومين الكتاني. فعرض عليها أظفاره الدامية، وقال لها دون صوت:

«لقد تسلقت الحاجز».

فقالت:

«لماذا».

قال:

«كي أراكِ».

ولم يعرف مايقول وقد أذهله ارتعاش يديه وتشقق صوته.

قالت سييرفا ماريا:

«انصرف».

فرفض بتحريك رأسه عدة مرات خشية أن يخونه الصوت. وكررت هي: «انصرف، وإلا سأصرخ». كان قد صار عندئذٍ قريباً جداً منها

بحيث يمكنه الاحساس بأنفاسها العذراء.

قال: «لن أذهب حتى ولو قتلوني». وأحسّ فجأة بأنه صار في الجانب الآخر من الرعب، فأضاف بصوت متماسك:: «إذا كنت تريدين الصراخ فيمكنك أن تبدأي».

عضت شفتيها. وجلس كايتانو على السرير وروى لها تفاصيل عقوبته، ولكنه لم يخبرها بالأسباب. وقد فهمت هي أكثر مما كان قادراً على قوله. نظرت إليه دون ارتياب وسألته لماذا لايضع العصابة على عينه.

فقال متحمساً:

«لم أعد بحاجة إليها. إنني أغمض عيني الآن وأرى ضفائر شعر كأنها نهر ذهبي».

غادرها بعد ساعتين وهو سعيد لأن سييرفا ماريا وافقت على عودته، شريطة أن يحضر لها حلوياتها المفضلة من أسواق البوابات. وجاء في وقت مبكر في الليلة التالية، حتى أن الدير كان مايزال ينبض بالحياة، وكانت هي ماتزال تضيء القنديل لتنهي تطريز مارتينا. وفي الليلة الثالثة حمل معه فتائل وزيتاً لتغذية النور. وفي الليلة الرابعة، وهي ليلة السبت، بقي يساعدها عدة ساعات وهي تفلّي القمل الذي تكاثر من جديد في الحبس. وحين أصبح شعرها نظيفاً ومسرحاً، أحس مرة أخرى بعَرَق الشهوة الجليدي. استلقى إلى جوار سييرفا ماريا بأنفاس مضطربة والتقى بعينيها الصافيتين على بعد شبر عن عينيه. فذهلا كلاهما. أبقى نظره مصوباً على عينيها وهويصلي من الخوف. وتجرأت هي على الكلام:

«كم عمرك؟».

فقال:

«أكملت السادسة والثلاثين في آذار».

فتفحصته بإمعان:

«لقد صرت عجوزاً»، قالت ذلك بنبرة ساخرة. ثم نظرت إلى أخاديد جبهته، وأضافت بكل قسوة سنها: «عجوز مجعد». فتقبل هو ذلك بمزاج طيب. سألته سييرفا ماريا عن سبب وجود خصلة الشعر البيضاء. فقال:

«إنها لطخة كالشامة».

قالت: «بصباغ زينة».

قال: «طبيعية. وأمي كانت لها واحدة مماثلة».

لم يكن قد رفع بصره عن عينيها حتى ذلك الحين، ولم تبد عليها علائم الميل إلى الاستسلام. فتنهد عميقاً، وأنشد:

«آه أيتها المفاتن العذبة التي أسأت لقياها».

فلم تفهم. وأوضح لها:

«إنه بيت شعر لجد جدي الثالث. لقد كتب ثلاث قصائد رعوية ومرثيتين وخمس أغنيات وأربعين سونيتا. ومعظمها كتبها لبرتغالية لا حُسْنَ فيها سوى أنها لم تكن له على الإطلاق، أولاً لأنه كان متزوجاً، ثم لأنها تزوجت بعد ذلك من رجل آخر وماتت قبله».

«وهل كان راهباً أيضاً؟».

فقال:

«كان جندياً».

تحرك شيء في قلب سييرفا ماريا، فرغبت في سماع بيت الشعر ثانية. فأعاد إنشـاده، ثم واصـل الإنشـاد هذه المرة بصوت ثابت ومتقن المخارج، حتى نهاية السونيتات الأربعين لفارس الحب والحرب، دون غارثيلاسـو دي لافيغـا، الذي مات في زهرة العمر بضربة حجر في الحرب.

عندما انتهى كايتانو، أمسك بيد سييرفا ماريا ووضعها فوق قلبه. وأحست هي بدوي عاصفته في الداخل.

قال:

«إنني هكذا دائماً».

دون أن يمنح الخوف متسعاً من الوقت، تحرر من المادة الكدرة التي كانت تمنعه من العيش. اعترف لها بأنه لاتمر عليه لحظة واحدة دون التفكير بها، وأنه حين يأكل أو يشرب يشعر بمذاقها، وأنها هي الحياة في كل زمان وكل مكان، مثلما هو للرب وحده الحق والقدرة على أن يكون كذلك، وأن متعة قلبه الكبرى هي أن يموت معها. واصل الحديث دون أن ينظر إليها، بالانسياب والدفء نفسيهما اللذين ينشد بهما الشعر، إلى أن ظن بأن سييرفا ماريا قد نامت. ولكنها كانت مستيقظة، وعيناها تتطلعان إليه كعيني غزالة مضطربة. وتجرأت على سؤاله:

«والآن؟».

فقال:

«الآن لاشيء. يكفيني أن تعرفي الأمر كله».

لم يستطع الاستمرار. وبينما هو يبكي بصمت مرر ذراعه تحت رأسها لتكون وسادة لها، وانكمشت هي ملتصقة بخاصرته. بقيا على تلك الحال دون أن يناما، ودون أن يتكلما، إلى أن بدأت الديوك بالصياح، فكان عليه أن يسرع بالمغادرة لكي يصل قبل صلاة الساعة الخامسة. وقبل أن يذهب، أهدت إليه طوق الاودوا الثمين: وهو عقد طوله ثماني عشرة بوصة من خرز الصدف والمرجان.

كان قد تجاوز الهلع ليحل محله قلق القلب. فلم يعد ديلاورا يعرف السكون، كان يقوم بأعماله بأي شكل، ويطفو، إلى أن تحين ساعة السعادة التي يهرب فيها من المستشفى ليلتقي بسييرفا ماريا. كان يصل إلى الزنزانة لاهثاً ومبللاً بالأمطار الأبدية، وكانت تنتظره بلهفة لاتستعيد معها أنفاسها إلا برؤيته. وفي إحدى الليالي بادرت هي إلى إنشاد الأشعار التي حفظتها لكثرة ماسمعتها، فأنشدت: «**حين أقف لأتأمل حالي وأرى الدرب الذي قدتني فيه**» ثم سألته بمكر:

«كيف هي التتمة؟».

فقال:

«**سأنتهي، لأنني أسلمت نفسي بتهور إلى من يضيعني وينهيني**»

فكررت هي بيت الشعر بالعذوبة نفسها، واستمرا على تلك الحال حتى نهاية الكتاب، يتجاوزان بعض الأبيات أو يعدلان ويحوران السونيتات بما يناسبهما، متلاعبين بها على هواهما وبتحكم أسيادها. ناما من التعب. دخلت الحارسة بالفطور في الساعة الخامسة وسط صياح الديكة، فاستيقظا مذعورين. توقفت حياتاهما. وضعت الحارسة الفطور

على الطاولة، وقامت بحركة تفتيش روتينية بالقنديل، وخرجت دون أن ترى كايتانو في السرير.

فقال ساخراً حين استعاد أنفاسه:

«الشيطان كائن خبيث. لقد جعلني غير مرئي أيضاً».

وكان على سيرفا ماريا أن تستخدم مكرها حتى لاتعود الحارسة للدخول إلى الزنزانة مرة أخرى في ذلك النهار. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، بعد يوم كامل من المداعبات المرحة، أحسّ كل منهما بأنه يحب الآخر منذ الأزل. تجرأ كايتانو، مابين المزاح والجد، على فك رباط صديري سيرفا ماريا. فحمت صدرها بكلتا يديها، وظهر بريق غضب في عينيها ووميض حياء أضاء جبهتها. فأمسك كايتانو يديها بسبابته وإبهامه وكأنهما نار متأججة، وأزاحهما عن الصدر. حاولت المقاومة، فواجهها بقوة رقيقة ولكنها حازمة.

قال لها:

«كرري معي: أخيراً جئت إلى يديك».

فانصاعت. وواصل الانشاد: «**إلى حيث أعرف أنني سأموت**»، وراح في أثناء ذلك يفتح الصديري بأصابعه المتجمدة. وكررت دون صوت تقريباً، وهي ترتعش من الخوف: «**لأختبر بنفسي فقط كيف يقطع السيف شخصاً خاضعاً**». عندئذ قبلها من فمها لأول مرة. فارتعش جسد سيرفا ماريا وصدرت عنها أنّة، وأطلقت نسمة بحر خفيفة واستسلمت لمصيرها. مرّ على جسدها برؤوس أصابعه وهو لايكاد يلمسها، وعاش للمرة الأولى معجزة الإحساس بنفسه في جسد آخر. صوت داخلي جعله

يرى أنه كان بعيداً عن الشيطان في لياليه المسهدة باللاتينية والاغريقية، وفي غيبوبة الإيمان، وفي قفار الطهارة، بينما كانت هي تتعايش مع كل قوى الحب الحر في أكواخ العبيد. أسلم قياد نفسه لها، متلمساً في الظلمة، ولكنه ندم في اللحظة الأخيرة وهوى في كارثة أخلاقية. بقي مستلقياً وعيناه مغمضتان. ذعرت سييرفا ماريا لصمته وسكونه الموتي، فلمسته بأحد أصابعها. وسألته:

«ماذا أصابك؟»

فهمس:

«دعيني الآن. إني أصلي».

في الأيام التالية لم تعد لديهما سوى لحظات سكون قليلة وهما معاً. كانا لا يرتويان من الحديث عن آلام الحب. وكانا يستنفدان قواهما بالقبلات، وينشدان وهما يبكيان بحرقة أشعار المحبين، ويغني كل منهما في أذن الآخر، ويتمرغان في مستنقعات الشهوة إلى أقصى حدود قواهما: منهوكان ولكن عذراوان. لأنه كان قد قرر الحفاظ على عفته إلى أن يتلقى نذوره. وقد شاطرته هي قراره أيضاً.

في استراحات العاطفة كانا يتبادلان اختبارات مغالية. قال لها إنه مستعد لعمل أي شيء من أجلها. فطلبت منه سييرفا ماريا بقسوة طفولية أن يأكل صرصاراً من أجلها. فأمسك واحداً وأكله حياً قبل أن تتمكن هي من منعه. وفي تحديات جنونية أخرى سألها إذا ما كانت مستعدة لقص جديلتها من أجله، فقالت له نعم، ولكنها حذرته بمزاح أو جد بأن عليه في هذه الحالة أنَ يتزوجها للوفاء بالنذر. فأحضر إلى

الزنزانة سكين مطبخ وقال لها: «لنرى إذا كان ماتقولينه صحيحاً». أدارت ظهرها لكي يستطيع قص الشعر من جذوره. قالت له محرضة: «كن جريئاً» ولكنه لم يتجرأ. بعد عدة أيام سألته إذا كان يقبل بأن يذبح مثل جدي. فقال لها بثبات نعم. فأخرجت السكين واستعدت لعمل ذلك. فقفز مذعوراً وهو يشعر بالقشعريرة النهائية. وقال: «أنت لا. أنت لا» أرادت أن تعرف السبب وهي تكاد تموت من الضحك، فقال لها الحقيقة:

«لأنك تملكين الجرأة على عمل ذلك».

وفي سكون العواطف بدأا يستمتعان أيضاً بضجر الحب اليومي. فكانت تحافظ على الزنزانة نظيفة ومرتبة من أجله حين يأتي بطبيعية الزوج الذي يعود إلى بيته. وكان كايتانو يعلّمها القراءة والكتابة ويدخلها في عالم الثقافة الشعرية والولاء للروح القدس، بانتظار اليوم السعيد الذي سيكونان فيه حرين ومتزوجين.

في فجر السابع والعشرين من نيسان، كانت سييرفا ماريا قد بدأت تغفو بعد أن غادر كايتانو الزنزانة، حين دخلوا فجأة لأخذها دون سابق انذار للبدء بالتعزيم عليها. كانت الطقوس مثل تلك التي يخضعون لها محكوماً بالاعدام. اقتادوها سحلاً إلى المنهل، وغسلوها بدلاء من الماء، وجردوها من أطواقها بشدها بعنف، وألبسوها رداء الهراطقة الرهيب. ثم قامت راهبة بستانية بقص شعرها على مستوى الرقبة بأربع عضات من

مقص تشذيب الأعشاب وألقت به إلى المحرقة المشتعلة في الفناء. ثم قصت الراهبة الحلاقة ذؤابات الشعر مبقية على نصف بوصة، مثل شعر الراهبات الكلاريات الذي يخفينه تحت غطاء رؤوسهن، وكانت تلقي بالجزازات التي تقصها إلى النار. رأت سيرفا ماريا اللهب الذهبي وسمعت فرقعة الحطب البكر، وشمت رائحة حادة لقرن محروق دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهها الحجري. وأخيراً ألبسوها القميص الجبري، وغطوها بقماش مأتمي، وحملها عبدان إلى الكنيسة على حمالة.

كان المطران قد دعا المجمع الكنسي المؤلف من كبار الكهنة، واختار هؤلاء أربعة من أتباعهم لكي يحضروا إجراءات التعزيم على سيرفا ماريا. وتسامى المطران على بؤس حالته الصحية في عملية تأكيد أخيرة للذات، وأمر بألا يتم إجراء الطقوس في الكتدرائية كما هو الحال في المناسبات الكبرى، وإنما في كنيسة دير سانتا كلارا، وتولى بنفسه إجراء التعزيم.

كانت الراهبات الكلاريات وعلى رأسهن رئيسة الدير يقفن في الكورال منذ ماقبل صلاة الصبح، وقد أنشدن هذه الصلاة بمرافقة الأرغن متأثرات بمهابة النهار الآخذ بالبزوغ. وعلى الفور دخل أساقفة المجمع الكنسي ورؤساء الثلاثة مذاهب ومسؤولو محكمة التفتيش. وما عدا هؤلاء الأخيرين، لم يكن هناك أي مدني.

كان المطران آخر من دخل بزي المراسم الكبرى، مرفوعاً على محفة يحملها أربعة عبيد، وعلى وجهه مسحة كآبة لاعزاء لها. جلس قبالة المذبح الأكبر على أريكة دوارة تساعده على تحريك جسمه، إلى جوار

قاعدة النعش المرمرية المخصصة للجنازات الكبرى، وفي الساعة السادسة تماماً، حمل العبدان سييرفا ماريا على الحمالة وهي ماتزال بالقميص الجبري ومغطاة بالقماش البنفسجي.

صار الحر لايطاق خلال الصلاة المغناة. كانت نغمات الأرغن العميقة تدوي في بطانة السقف ولا تكاد تترك ثغرات للأصوات التافهة التي تطلقها الراهبات الكلاريات وراء مشربيات الكورال. العبدان شبه العاريين اللذان حملا حمالة سييرفا ماريا بقيا إلى جوارها في حالة تأهب. وبعد انتهاء الصلاة رفعا الغطاء عنها وتركاها ممددة مثل أميرة ميتة فوق منصة التابوت المرمرية. العبيد الذين يحملون المطران رفعوه في محفته ووضعوه إلى جوار سييرفا ماريا وتركوهما وحيدين في مكان فسيح قبالة المذبح الأكبر.

ما تلا ذلك كان توتراً لايعاش وصمتاً مطلقاً يبدو وكأنه مقدمة لمعجزة سماوية. وضع قندلفت أمام المطران إناء الماء المبارك. فتناول هذا الأخير المرشة مثل مدقة حربية، وانحنى فوق سييرفا ماريا ورشها بالماء على طول جسدها وهو يدمدم ترتيلة. وفجأة نطق بالرقية التي رجت ركائز الكنيسة.

صرخ قائلاً:

«كائناً من تكون، بأمر يسوع رب وسيد كل ماهو مرئي وغير مرئي، كل ماهو كائن وما كان وما سيكون، غادر هذا الجسد المفتدى بالعماد، وعد إلى عالم الظلمات».

صرخت سييرفا ماريا أيضاً وقد أخرجها الرعب عن طورها. فرفع

المطران صوته ليسكتها، ولكنها زادت من صراخها. أخذ المطران نفساً عميقاً وفتح فمه من جديد ليواصل الرقية، ولكن الهواء مات في صدره ولم يستطع طرده. هوى على وجهه وهو يشهق مثل سمكة على البر، وانتهت الطقوس بضجة هائلة.

في تلك الليلة وجد كايتانو سييرفا ماريا ترتعش من الحمى في القميص الجبري. وكان أكثر ما أثار حفيظته هو رأسها الحليقة. «يارب السماء»، دمدم بغضب أصم بينما هو يفك أحزمتها «كيف يمكنك أن تسمح بهذه الجريمة».

وما إن أصبحت سييرفا ماريا حرة حتى قفزت إلى عنقه وبقيا متعانقين وهي تبكي. تركها تفضفض عن نفسها. ثم رفع رأسها بعد ذلك وقال لها: «لامزيد من الدموع». ثم ربط قوله ببيت شعر لغاريثلاسو:

«**تكفي الدموع التي بكيتها**».

روت له سييرفا ماريا تجربة الكنيسة الرهيبة. حدثته عن دوي الكورال الذي بدا وكأنه دوي حرب، عن صرخات المطران الهذيانية، وعن أنفاسه الكاوية، وعن عينيه الخضراوين البديعتين وقد توقدتا بالهيجان. وقالت:

«لقد كان مثل الشيطان».

حاول كايتانو تهدئتها. أكد لها أنه على الرغم من جسد المطران الضخم، وصوته المرعد، وأساليبه العسكرية، إلا أنه رجل طيب وحكيم. وهكذا، فقد كان رعب سييرفا ماريا مفهوماً، ولكنها لم تكن مهددة بأي خطر في الوقت نفسه.

قالت:

«ما أريده هو أن أموت».

فقال:

«إنك تشعرين بالغيظ والانهزام، مثلما أشعر بهما أنا لأني لاأستطيع مساعدتك. ولكن الرب سيكافئنا في يوم القيامة».

نزع عقد الاودوا الذي كانت سييرفا ماريا قد أهدته إليه، وعلقه في عنقها بدلاً من عقودها المفقودة. استلقيا على السرير، أحدهما إلى جانب الآخر، وراحا يتقاسمان أحقادهما، بينما كان العالم ينطفىء ولا يبقى فيه سوى أخاديد النمل الأبيض على بطانة السقف. تراجعت الحمى. وتكلم كايتانو في الظلام:

«في سفر الرؤيا إعلان عن يوم لايطلع فجره مطلقاً، عسى أن يجعله الرب يومنا هذا».

كانت سييرفا ماريا قد نامت ساعة واحدة منذ أن غادرها كايتانو، حين أيقظتها ضجة جديدة. كان يقف أمامها، مع رئيسة الدير، كاهن عجوز هائل القامة، له بشرة غامقة ملوحة بملح البارود، ورأس ذو ذؤابات واقفة، وحاجبان كثان، ويدان خشنتان تدعوان إلى الثقة. وقبل أن تستيقظ سييرفا ماريا تماماً، قال لها الكاهن بلغة اليوربا:

«لقد أتيتك بعقودك».

أخرجها من جيبه، تماماً مثلما أعادتها إليه أمينة مستودع الدير بناء على طلبه. وكان يعدّ كل واحد منها وهو يعلقه في عنق سييرفا ماريا ويصفه بإحدى اللغات الافريقية: الأحمر والأبيض للحب ولدم

تشانغو، الأحمر والأسود للحياة والموت ولاليغوا، عقد الخرزات المائية والزرقاء الباهتة ليمايا. وكان ينتقل برشاقة من لغة اليوربا إلى لغة الكونغو، ومن لغة الكونغو إلى الماندينغا، وكانت تتابعه بظرافة وانسيابية. وإذا كان قد انتقل إلى القشتالية أخيراً، فقد فعل ذلك فقط احتراماً لرئيسة الدير التي لم تكن لتصدق بأن لدى سييرفا ماريا كل هذه العذوبة.

لقد كان الأب توماس دي اكينو دي نارفايث، النائب القديم في محكمة التفتيش في اشبيلية، وكاهن حي العبيد الحالي، وقد اختاره المطران لكي يحل مكانه في التعزيم لأن ظروفه الصحية تحول دون مواصلته الأمر بنفسه. لقد كان ملفه كرجل متشدد لايدع مجالاً للشك. فقد قاد إلى المحرقة أحد عشر هرطوقياً ويهودياً ومحمدياً، ولكن سمعته كانت تستند قبل كل شيء إلى الأرواح الكثيرة التي استطاع انتزاعها من أكثر الشياطين مكراً في الأندلس. كان مرهفاً في ذوقه وطرائقه، وله أسلوب أهل جزر الكناري في الكلام. كان قد ولد هنا، ابناً لنائب للملك تزوج من عبدة مُولّدة، وقد أمضى مرحلة دراسته كراهب مستجد في مدرسة دينية محلية بعد أن ثبت نقاء نسبه لأربعة أجيال من البيض. وقد أهلته إمكانياته لمواصلة الدكتوراة في إشبيليا، حيث عاش ووعظ حتى الخمسين من عمره. ولدى عودته إلى بلاده، طلب تعيينه في الخورنية الأكثر بؤساً، شغف بالأديان واللغات الافريقية، وعاش مثل عبد آخر بين العبيد. كان يبدو وكأنه ليس هناك من هو أفضل منه للتفاهم مع سييرفا ماريا ولمواجهة شياطينها بعقلانية أكبر.

رأت فيه سييرفا ماريا على الفور ملاكها المخلِّص، ولم يكن تقديرها مخطئاً، فقد فند بحضورها الحجج الواردة في المحاضر وأثبت لرئيسة الدير أنه لاوجود لحجة واحدة حاسمة بينها. علّمها أن شياطين اميركا هي نفسها شياطين اوروبا، ولكن الذي يختلف هو سلوكها وأسماؤها. وشرح لها القواعد الأربع المتبعة للتعرف على المس الشيطاني، وأراها كم هو سهل على الشيطان الافادة من تلك القواعد لاشاعة اعتقاد معاكس. ودّع سييرفا ماريا بقرصة تودد في خدها.

وقال لها:

«نامي مطمئنة. لقد نجحتُ مع أعداء أسوأ».

بد الارتياح التام على رئيسة الدير، حتى أنها دعته لتناول شيكولاتة الراهبات الكلاريات المعطرة الشهيرة مع بسكويت الأنيسون وعجائب الحلويات المحفوظة للزائرين المختارين. وبينما هما يتناولانها في قاعة الأكل الخاصة، أصدر تعليماته من أجل الخطوات التالية. فامتثلت رئيسة الدير شاكرة. وقالت:

«لايهمني إذا ما كانت أمور هذه التعسة ستنتهي خيراً أو شراً. ما أطلبه من الرب هو أن تخرج من هذا الدير بأسرع ما يمكن».

وعدها الأب بأن يبذل قصارى جهده لحل المسألة خلال أيام، أو ربما خلال ساعات. وعندما ودّعها في غرفة المقابلات، كانا كلاهما راضيين، دون أن يعلما بأن أياً منهما لن يعود إلى اللقاء بالآخر مطلقاً.

وهذا ماحدث. فالأب اكينو، كما كانت تسميه رعيته، ذهب ماشياً إلى الكنيسة، فهو منذ زمن لايصلي إلا قليلاً، وقد عوض عن ذلك أمام

الرب بأنه يحيا كل يوم عذابات حنينه. تأخر عند البوابات مذهولاً من نداءات بائعي كل شيء، وبانتظار انحدار الشمس لكي يجتاز وحول الميناء، اشترى أرخص أنواع الحلوى وجزءاً من ورقة يانصيب الفقراء آملاً دون جدوى بربح الجائزة لترميم معبده الخرب. وبقي نصف ساعة يتحدث مع نساء زنجيات يجلسن كتماثيل آلهة أمام بضائع صناعات تقليدية رخيصة معروضة على حصر من القنب. وفي حوالي الساعة الخامسة اجتاز جسر جيتسماني المتحرك، حيث كانوا قد علقوا للتو جثة كلب سمين ومشؤوم لكي يعرف الجميع بأنه مات بداء الكلب. كان الهواء يعبق برائحة أزهار بدايات أيار، وكانت السماء هي الأكثر صفاء في الدنيا.

كان حي الزنوج القائم على حافة المستنقع تماماً يهز النفس ببؤسه الشديد. ففي أكواخ الطين المسقوفة بالسعف كان الأهالي يعيشون مع النسور والخنازير، وكان الأطفال يشربون من مستنقعات الشارع. ولكنه كان مع ذلك أكثر الأحياء مرحاً بألوانه الصارخة وأصواته المشعة، وخصوصاً عند الأصيل، حين يخرج الأهالي كراسيهم ليستمتعوا بالبرودة وسط الشارع. وزّع الخوري الحلوى على أطفال المستنقع، وأبقى ثلاث قطع منها لعشائه.

كان المعبد عبارة عن كوخ من القصب والطين، سقفه من السعف في أعلاه صليب خشبي. وكانت فيه مقاعد من خشب ثقيل، ومذبح واحد عليه قديس واحد ومنبر خشبي يعظ منه الخوري في أيام الآحاد بلغات

افريقية. وكان بيت الخوري امتداداً للكنيسة وراء المذبح الكبير، حيث كان الكاهن يعيش في ظروف بائسة في غرفة تضم سريراً هوائياً وكرسياً خشناً. وفيما وراء الغرفة كان هناك فناء حصوي صغير وعريشة دالية عليها عناقيد مذهلة، وسياج شوكي يفصل الفناء عن المستنقع. وكان مصدر ماء الشرب الوحيد هو حوض من الملاط في أحد أركان الفناء.

كان هناك قندلفت عجوز وطفلة يتيمة في الرابعة عشرة من عمرها، كلاهما مرتد عن ديانة الماندينغا، وهما مساعدا الخوري في الكنيسة والبيت، ولكنه لايعود بحاجة إليهما بعد صلاة الصبح. قبل أن يغلق الخوري الباب، تناول قطع الحلوى الثلاث مع كأس ماء، وودّع الجيران الجالسين في الشارع بعبارته المعهودة بالقشتالية:

«فليمنحكم الرب جميعاً ليلة طيبة ومقدسة».

في الصباح قام القندلفت الذي يعيش على بعد كوادرا واحدة عن الكنيسة بقرع الأجراس الأول من أجل القداس الوحيد. وقبيل الخامسة، ولأن الخوري تأخر، ذهب للبحث عنه في غرفته. لم يكن هناك. ولم يجده كذلك في الفناء. واصل البحث عنه في محيط الكنيسة لأنه كان يذهب أحياناً للتحدث مع الناس في الأفناء المجاورة. فلم يجده. قال للمصلين القليلين الذين حضروا إنه لا توجد صلاة لأنهم لم يجدوا الخوري. وفي الساعة الثامنة، حين كانت حرارة الشمس قد اشتدت، ذهبت طفلة الخدمة لاحضار ماء من الحوض، وهناك وجدت الأب اكينو طافياً على ظهره وهو بالبنطلون الداخلي الذي يلبسه حين ينام. لقد كانت مِيْتة حزينة ومؤسفة، وبقيت سراً غامضاً لم ينكشف مطلقاً،

واعتبرته رئيسة الدير الدليل الحاسم على تسلط حقد الشيطان على ديرها.

لم يصل الخبر إلى زنزانة سييرفا ماريا التي بقيت تنتظر قدوم الأب اكينو بأمل بريء. لم تستطع أن توضح لكايتانو من هو، ولكنها أخبرته عن لطفه بإعادة الأطواق إليها ووعده لها بإنقاذها. كان يبدو لكليهما حتى ذلك الحين أن الحب وحده يكفيهما ليكونا سعيدين. وكانت سييرفا ماريا، بعد أن خاب أملها بالأب اكينو، هي التي تنبهت إلى أن الحرية هي قضية متعلقة بهما فقط. وفي فجر أحد الأيام، بعد ساعات طويلة من القبلات، توسلت إلى ديلاورا ألا يذهب. لكنه أخذ الأمر بخفة وودّعها بقبلة أخرى. فقفزت من السرير وفتحت ذراعيها أمام الباب.

«إما أن تبقى وإما أن أذهب أنا أيضاً».

كانت قد قالت لكايتانو في بعض المناسبات إنها ترغب في اللجوء معه إلى سان باسيليو دي بالينكي، ضيعة العبيد الفارين التي تبعد اثني عشر فرسخاً، حيث سيستقبلونها دون شك كملكة. بدت الفكرة لكايتانو وكأنها صادرة عن العناية الإلهية، ولكنه لم يربطها بالفرار. لقد كان يثق أكثر بالشكليات القانونية، وذلك بأن يسترد المركيز ابنته مع تأكيد جازم بأنها لم تكن مسكونة، وبأن يحصل هو على عفو مطرانه وإذنه بالانضمام إلى جماعة مدنية حيث يكثر زواج الكهنة أو الراهبات

إلى درجة لا يثير معها استغراب أحد. ولهذا، حين وضعته سييرفا ماريا أمام مفترق البقاء معها أو أخذها معه، حاول ديلاورا أن يصرفها عن الفكرة مرة أخرى. فتعلقت بعنقه وهددته بأنها ستصرخ، كان الفجر قد بدأ بالبزوغ، فتمكن ديلاورا من دفعها والتخلص منها، وهرب في اللحظة التي بدأت فيها الراهبات صلاة الصبح.

كان رد فعل سييرفا ماريا شرساً جداً. فمن أجل تعارض تافه خمشت وجه الحارسة بأظفارها. وأغلقت الباب على نفسها وهددت بإشعال النار في الزنزانة وإحراق نفسها فيها إذا لم يسمحوا لها بالذهاب. فصرخت بها الراهبة السجانة وقد أفقدها وجهها الدامي أعصابها:

«تجرَّئي على فعل هذا يا بهيمة الشيطان».

وكان رد سييرفا ماريا الوحيد هو إضرام النار في الفرشة بالقنديل. ولكن تدخل مارتينا بأساليبها المهدئة حال دون وقوع المأساة. على كل حال، طلبت الحارسة في تقريرها لذلك اليوم أن يتم نقل الطفلة إلى زنزانة أكثر أماناً في جناح محتبس الراهبات المحرم.

جزع سييرفا ماريا دفع كايتانو للبحث عن وسيلة فورية مختلفة للهرب. حاول اللقاء مع المركيز مرتين، وفي كلتيهما منعته من تحقيق ذلك كلاب الحراسة التي وجدها طليقة على هواها في البيت الذي غادره صاحبه. والواقع ان المركيز لن يعود إلى البيت أبداً. فحين هزمته مخاوفه التي لا تنتهي، حاول اللجوء إلى كنف دولسي أوليفيا، فلم تستجب له. لقد ناداها بكل الوسائل مذ بدأت عزلته، ولكنه لم يكن يتلقى سوى إجابات ساخرة وقصاصات ورقية. وفجأة، جاءت دون أن

يستدعيها ودون أن تعلن عن مجيئها. كانت قد كنست ورتبت المطبخ المهجور الذي لم يعد يستخدم، وكان القدر يغلي على نار مرحة فوق الموقد. كانت ترتدي ملابس يوم الأحد وتنورة من حرير الاورغنزة، ووجهها مطلي بأصبغة وطلاءات دارجة، الشيء الوحيد الذي كان يظهر عتهها هو قبعة واسعة الحواف مزينة بأسماك وعصافير قماشية.

قال لها المركيز:

«أشكرك لمجيئك. كنت أشعر بأنني وحيد جداً». ثم أضاف بحسرة:

«لقد أضعت سيرفا».

فقالت دون أن توليه اهتماماً:

«إنها خطيئتك. فأنت الذي عملت كل شيء لكي تضيع».

كان العشاء طبيخاً حاراً على الطريقة المحلية، فيه ثلاثة أنواع من اللحم ونخبة من خضار البستان. وقد قدمت دولسي أوليفيا الطعام بأسلوب سيدة بيت يتناسب جيداً مع زيها. وكانت الكلاب الباسلة تتبعها لاهثة، وتلتصق بساقيها، بينما كانت هي تداعب الكلاب بهمسات عروس. جلست إلى المائدة قبالة المركيز، مثلما كان يمكن لهما أن يجلسا حين كانا شابين لا يخشيان الحب، وأكلا بصمت، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، وهما يتعرقان بغزارة ويتناولان الحساء بلا مبالاة زوجين قديمين. بعد الانتهاء من الطبق الأول، توقفت دولسي أوليفيا لتتنهد، وانتبهت إلى سنوات عمرها، فقالت:

«كان يمكن لنا أن نكون هكذا».

انتقلت عدوى فظاظتها إلى المركيز، فرآها بدينة وهرمة، وقد نقص

اثنان من أسنانها، وذوت عيناها. ربما كان ما قالته قد حدث فعلاً لو أنه امتلك الجرأة على معارضة أبيه.

قال لها:

«تبدين سليمة العقل».

فقالت:

«وقد كنت كذلك دائماً. أنت الذي لم ترني مطـلقـاً مثلما أنا في الواقع».

قال:

«لقد اخترتك من بين الحشد عندما كن جميعهن شابات وجميلات وكان من الصعب تمييز أجملهن».

قالت:

«أنا التي ميزت نفسي من أجلك. أما أنت فلا. لقد كنت دائماً مثلما أنت الآن: مجرد شيطان بائس».

قال:

«أنت تشتمينني في بيتي».

شجع اقتراب الغروب دولسي أوليفيا، فقالت:

«إنها لي كما هي لك. مثلما هي الطفلة لي مع أن كلبة هي التي أنجبتها». ودون أن تتيح له وقتاً للرد، أضافت:

«الأسوأ من ذلك هي اليد التي عهدت بالطفلة إليها».

قال:

«إنها يد الرب».

فصاحت دولسي أوليفيا غاضبة:

«بل يد ابن المطران الذي عهّرها وحبّلها».

فصرخ المركيز مستنكراً:

«إذا عضضت لسانك فسوف تتسممين!».

فقالت دولسي أوليفيا:

«ساغونتا تضخم الأخبار، ولكنها لا تكذب، ولا تحاول إذلالي لأنه لم يبق لديك سواي لرش وجهك بالبودرة حين تموت».

وكانت النهاية الدائمة. بدأت دموعها تسقط في الطبق مثل قطرات حساء. كانت الكلاب قد نامت، ولكن توتر النزاع أيقظها ورفعت رؤوسها متنبهة وزمجرت بحناجرها. أحس بأنه يختنق، فقال غاضباً:

«أرأيتِ، هذا ما كنا سنصير إليه».

نهضت قبل أن تنتهي. ورفعت الأواني عن المائدة. وغسلت الأطباق والقدور بغضب بذيء، وكلما غسلت شيئاً كسرته في حوض الغسل. تركها تبكي إلى أن أفرغت أنقاض الأطباق مثل انهيار ثلجي في صندوق القمامة. ومضت دون وداع. ولم يعرف المركيز مطلقاً، كما لم يعرف أي شخص آخر، متى تخلت دولسي أوليفيا عن أن تكون هي نفسها، وأصبحت مجرد طيف في ليالي البيت.

الكذبة القائلة إن كايتانو ديلاورا هو ابن المطران استُبدلت بأخرى أقدم منها تقول أنهما كانا عشيقين مذ كانا في سلمنكا. رواية دولسي أوليفيا التي أكدتها ساغونتا وزادتها خبثاً كانت تقول بالفعل أن سييرفا ماريا مخطوفة في الدير لاشباع نزوات كايتانو ديلاورا الشيطانية، وأنها

حبلت بمولود له رأسين. وقالت ساغونتا إن عدوى لياليهما الحمراء قد انتقلت إلى طائفة الكلاريات بأسرها.

لم يسترح المركيز مطلقاً. وبحث في رمال الذاكرة المتحركة عن ملجأ من الرعب. فلم يجد سوى ذكرى بيرناردا وقد ضخمتها الوحدة. حاول استبعادها باستحضار أكثر ما كان يكرهه فيها: ريحها النتنة، ومقوياتها الفظة، والنتوءات الدهنية أسفل ذقنها التي كنتوءات الديك، وكلما حاول تحقيرها أكثر كانت الذكريات تزيد من مثاليتها. غلبته الأشواق وبعث رسائل جس نبض إليها في معصرة قصب السكر في ماهاتيس حيث كان يفترض أنها موجودة منذ ذهابها. وقد كانت هناك بالفعل. أرسل يطلب منها أن تنسى أحقادها وتعود إلى البيت، ليكون لكل منهما على الأقل رفيق عند الموت. وأمام عدم الرد، ذهب للبحث عنها.

كان عليه أن يعيد تركيب ازدحام الذاكرة. فالمزرعة التي كانت الأفضل في الإقليم كله تحولت إلى عدم. كان من الصعب تمييز الطريق ما بين النباتات الملتفة. لم يكن هناك من معصرة القصب سوى الأنقاض. وكانت الآلات متآكلة من الصدأ، وكان هيكلا الثورين الأخيرين العظميان ما يزالان مشدودين إلى ذراع المعصرة. وكان بئر الزفرات على ما يبدو هو المكان الوحيد الذي مايزال حياً في ظل نبتات القرع. وقبل أن يلمح البيت وسط آجام حقول قصب السكر المتكلسة، شم المركيز رائحة صابون بيرناردا الذي أصبح في نهاية الأمر رائحتها الطبيعية، وأدرك مدى اشتياقه لرؤيتها. كانت تجلس على كرسي هزاز عند حافة الشرفة وهي تأكل الكاكاو ونظرها ثابت على الأفق. وكانت

ترتدي تنورة قطنية وردية اللون، وكان شعرها ما يزال مبللاً من حمامها الأخير في بئر الزفرات.

حياها المركيز قبل أن يصعد درجات البوابة الثلاث: «مساء الخير». فردت بيرناردا على التحية دون أن تنظر إليه، وكأن تلك التحية لم تكن موجهة من أحد. صعد المركيز إلى الشرفة، وطاف من هناك على الأفق كله بنظرة متواصلة فوق النباتات المتشابكة. ولم يكن على مدى البصر سوى الجبل الموحش ونبتات القرع عند البئر. سألها: «ماذا فعل الناس؟» وعادت بيرناردا للرد دون أن تنظر إليه، مثل والدها، قائلة: «لقد ذهبوا جميعهم. لا يوجد كائن حي واحد على مدى مئة فرسخ من هنا».

دخل بحثاً عن كرسي. كان البيت مشققاً، وكانت هناك نبتات ذات أزهار بنفسجية تنمو ما بين بلاط الأرضية. وفي قاعة الطعام كانت الطاولة القديمة والكراسي نفسها المتآكلة بفعل النمل الأبيض، والساعة المتوقفة في وقت لا يعرفه أحد، وكل شيء في هواء غبار غير مرئي يمكن الاحساس به عند التنفس. حمل المركيز كرسياً، وجلس إلى جوار بيرناردا، وقال لها بصوت خافت جداً:

«لقد جئت لآخذك».

لم تتأثر بيرناردا، ولكنها هزت رأسها بحركة تأكيد لا تكاد تكون مرئية. حدثها عن حالته: البيت المهجور، العبيد القابعون وراء الشجيرات وسكاكينهم الجاهزة، والليالي اللانهائية. وقال:

«هذه ليست حياة».

فقالت:

«وهي لم تكن حياة أبداً».

قال:

«ربما تصبح كذلك».

قالت:

«ما كنت لتقول لي هذا الكلام لو كنت تعرف كم أكرهك».

قال:

«وأنا كنت أظن دائماً أنني أكرهك. ولكنني لست متأكداً من ذلك الآن».

عندئذ فتحت له بيرناردا دخيلتها لكي يرى ما فيها على ضوء النهار. روت له كيف أن أباها أرسلها بحجة أسماك الرنكة والمخللات، وكيف خدعاه بحيلة قراءة الكف القديمة، وكيف اتفقا على أن تغتصبه هي حين كان يبدي التجاهل، وكيف خططا للمناورة الباردة والصائبة بحبلها بسييرفا ماريا لكي يقتنصاه مدى الحياة. والشيء الوحيد الذي كان عليه أن يشكرها من أجله هو أن قلبها لم يطاوعها لتنفيذ العمل الأخير الذي اتفقت عليه مع أبيها، أي سكب جرعة من اللودانوم في حسائه حتى لا يتألم.

قالت:

«أنا التي وضعت الأنشوطة حول عنقي. ولكنني لست نادمة. لقد كان كثيراً جداً، بعد هذا كله، الأمل بأن أحب تلك الخديجة البائسة أو أحبك أنت الذي كنت سبب نكباتي».

ومع ذلك، فقد كانت الدرجة الأخيرة من انحطاطها هي فقدان يهوذا الاسخريوطي. وبحثاً عنه في آخرين، أسلمت نفسها إلى فجور بلا كوابح مع عبيد معصرة القصب، وهو الأمر الذي كان يثير اشمئزازها أكثر من أي شيء قبل أن تمارسه أول مرة. كانت تنتقي العبيد في جماعات وتصرفهم أرتالاً عند تخوم حقل القصب إلى أن أتلف العسل المختمر وأقراص الكاكاو مفاتنها، وأصبحت منتفخة ودميمة، ولم يعد جسدها يكفي رغباتها. عندئذ بدأت تدفع. فكانت تدفع في أول الأمر ذهباً مقلداً إلى أكثر العبيد فتوة، وحسب الجمال والمقاس، ثم انتهت إلى دفع الذهب الصافي لكل من تستطيع إقناعه. وقد تأخرت كثيراً في اكتشاف هروبهم الجماعي إلى سان باسيليو دي بالينكي لينجوا بأنفسهم من جوعها الذي لا سبيل إلى إشباعه.

وقالت دون دمعة واحدة:

«عندئذ عرفت أنني ما كنت لأتورع عن قتلهم بمنجل القصب، ليس هم وحدهم، بل كذلك أنت والطفلة ووالدي الدنيء وكل من شارك في التغوط في حياتي. ولكنني كنت قد تحولت إلى لا أحد لكي أقتل لا أحد».

بقيا صامتين يتأملان الغروب فوق الأراضي المهملة. سُمعت ضجة حيوانات بعيدة في الأفق، وصوت امرأة بلا عزاء تستدعيها بأسمائها، واحداً واحداً، إلى أن خيم الليل. زفر المركيز:

«أرى أنه لا وجود لما أشكرك عليه».

نهض متمهلاً، وأعاد الكرسي إلى مكانه، ومضى من حيث جاء، دون وداع ودون نور.

بقيت مارتينا لابوردي في ذلك اليوم في جلسة تطريز استمرت طوال فترة الصباح لكي تنهي عملاً متأخراً. تناولت الغداء في زنزانة سييرفا ماريا، ثم ذهبت إلى زنزانتها لتنام القيلولة. وفي المساء، عندما كانت تطرز الغرزات الأخيرة، تحدثت إلى سييرفا ماريا بحزن غريب:

«إذا ما خرجتِ يوماً من هذا الحبس، أو إذا خرجتُ قبلك، فتذكريني دائماً. وسيكون ذلك هو مجدي الوحيد».

لم تفهم سييرفا ماريا ما عنته حتى اليوم التالي، حين أيقظتها الحارسة صارخة لأن مارتينا لم تكن في زنزانتها في الصباح. لقد فتشوا الدير بدقة ولم يجدوا لها أي أثر. الخبر الوحيد عنها هو ورقة مكتوبة بخطها المزهر وجدتها سييرفا ماريا تحت الوسادة: **سأصلي ثلاث مرات في اليوم من أجل أن تكوني سعيدة جداً**.

كانت ما تزال مذهولة من المفاجأة حين دخلت عليها رئيسة الدير والنائبة وراهبات موقرات أخريات، ودورية حراس مسلحين ببنادق الفتيل. مدت رئيسة الدير يداً غاضبة لتلمس سييرفا ماريا، وصاحت بها:

«أنت متواطئة وستعاقبين».

رفعت الطفلة يدها الطليقة بحزم جمّد رئيسة الدير في مكانها، وقالت:

«لقد رأيتهم يخرجون».

استولى الذهول على رئيسة الدير:

«ألم تكن وحدها؟».

فقالت سييرفا ماريا:

«كانوا ستة».

بدا ذلك غير معقول، وخصوصاً خروجهم عبر الشرفة، حيث السبيل الوحيد للهرب هو الفناء المحصن. «كانت لهم أجنحة خفافيش»، قالت سييرفا ماريا ذلك وهي تخفق بذراعيها «فتحوا أجنحتهم على الشرفة وحملوها وطاروا بها، طاروا حتى الجانب الآخر من البحر». رسم نقيب الدورية شارة الصليب مذعوراً وخرّ على ركبتيه، وقال:

«أيتها العذراء الطاهرة».

فرددن معاً في كورال:

«يامن حبلت دون خطيئة أصلية».

كان هروباً متقناً، خططت مارتينا لأدق تفاصيله بسرية مطلقة منذ اكتشفت أن كايتانو يمضي لياليه في الدير. الشيء الوحيد الذي لم تنتبه إليه، أو ربما لم يكن يهمها أن تنتبه إليه، هو إغلاق مدخل مجرى التصريف من الداخل لتبعد الشكوك. فقد وجده المحققون في عملية الهرب مفتوحاً، ففحصوه، واكتشفوا الحقيقة، وأغلقوا طرفيه في الحال. تم نقل سييرفا ماريا بالقوة إلى زنزانة ذات قفل في جناح المدفونات على قيد الحياة. وفي تلك الليلة، تحت قمر بديع، حطم كايتانو قبضتيه وهو

يحاول كسر مدخل النفق.

اجتاحته قوة مجنونة جعلته يهرع بحثاً عن المركيز. دفع البوابة دون أن يطرقها ودخل إلى البيت المقفر الذي كان نوره في الداخل مثل ضوء الشراع لأن الجدران المطلية بالكلس كانت تلمع تحت ضوء القمر. نظافة البيت، وترتيب الأثاث، وأزهار الأحواض، وكل شيء كان محكماً في البيت المهجور. هيج صرير المفصلات الكلاب، لكن دولسي أوليفيا أسكتتها فجأة بأمر عسكري. رآها كايتانو في ظل الفناء الأخضر، جميلة ومشعة، بعباءة مركيزة وشعر مزين بأزهار كاميليا حية ذات ألوان جنونية، فرفع يده مشكلاً صليباً من سبابته وإبهامه.

سألها:

«باسم الرب: من تكونين؟».

فقالت:

«روح محزونة. وأنت؟».

قال:

«أنا كايتانو ديلاورا. جئت أتوسل السيد المركيز جاثياً أن يستمع إلي للحظة واحدة».

لمعت عينا دولسي أوليفيا من الغضب، وقالت:

«ليس هناك مايمكن للسيد المركيز أن يسمعه من شخص سافل».

«ومن تكونين حتى تقولي هذا الكلام بمثل هذه الثقة؟».

قالت:

«أنا ربة هذا البيت».

قال ديلاورا:

«حباً بالرب. أخبري المركيز بأنني جئت لأحدثه عن ابنته». ثم أضاف دون مواربة وهو يضع يده على صدره:

«إنني أموت حباً بها».

«كلمة أخرى وأطلق الكلاب»، قالت دولسي أوليفيا ذلك وأشارت إلى الباب:

«أخرج من هنا».

كانت قوة سلطتها كبيرة لدرجة أن كايتانو خرج من البيت وهو يمشي القهقرى لكي لاتضيع عن نظره.

في يوم الثلاثاء، حين دخل ابرينونثيو إلى غرفته في المستشفى وجد ديلاورا محطماً من السهر القاتل. روى له كل شيء، ابتداء من الأسباب الحقيقية لمعاقبته وحتى ليالي الحب في الزنزانة.

استولت الحيرة على ابرينونثيو:

«كان بإمكاني تصور أي شيء منك إلا الوصول إلى هذا التطرف الجنوني».

فوجىء كايتانو بدوره، وسأله:

«ألم تجرب ذلك أبداً؟».

قال ابرينونثيو:

«مطلقاً يابني. فالجنس موهبة لا أمتلكها».

حاول ثنيه عما هو فيه. قال له إن الحب إحساس مناقض للطبيعة البشرية، وإنه يحكم على شخصين غريبين بارتباط بائس ووخيم يصبح

أكثر عرضة للزوال كلما كان الحب أكثر زخماً. لكن كايتانو لم يستمع إليه. كانت الفكرة المتسلطة على عقله هي الهرب أبعد مايمكن عن قهر العالم المسيحي.

قال:

«المركيز وحده يستطيع مساعدتنا بالقانون. كنت أريد التوسل إليه جاثياً ولكنني لم أجده في بيته».

قال ابرينونثيو:

«لن تجده مطلقاً. الاشاعات التي وصلته تقول إنك حاولت خداع الطفلة. وأنا أرى الآن، من وجهة نظر مسيحي، أنه كان على صواب».

ثم نظر إلى عينيه:

«ألا تخشى اللعنة؟».

فقال ديلاورا دون ذعر:

«أظنني صرت ملعوناً، ولكن ليس من قبل الروح القدس. فقد كنت أؤمن على الدوام بأنه يأخذ في اعتباره الحب أكثر من الايمان».

لم يستطع ابرينونثيو إخفاء إعجابه بذلك الرجل الذي تحرر للتو من عبودية العقل. ولكنه لم يقدم له وعوداً زائفة، وخصوصاً حين كانت محاكم التفتيش شيئاً قائماً.

قال له:

«إن لكم دين موت يغرس فيكم الشجاعة والسعادة لمواجهته. أما أنا فلا: إنني أؤمن بأن الشيء الجوهري الوحيد هو كوني حياً».

ركض كايتانو إلى الدير. دخل في وضح النهار من بوابة الخدمة

واجتاز الحديقة دون أي توخٍ للحذر مقتنعاً بأنه غير مرئي بقدرة صلواته. صعد إلى الطابق الثاني، واجتاز ممراً مقفراً له سقف واطىء جداً يربط مابين كتلتي الدير، ودخل عالم المدفونات على قيد الحياة الصامت والساكن. ومرّ دون أن يدري أمام الزنزانة الجديدة، حيث كانت سيرفا ماريا تبكي من أجله. وكان على وشك الوصول إلى جناح السجن حين أوقفته صرخة وراءه:

«قف!».

التفت ورأى راهبة مغطاة ببرقع، وصليب مرفوع في مواجهته. تقدم خطوة إلى الأمام، ولكن الراهبة رفعت يسوع فيما بينهما، وصرخت به: «تراجع!».

وسمع وراءه صوتاً آخر: «تراجع». ثم صوتاً آخر وآخر: «تراجع». دار عدة مرات حول نفسه وانتبه إلى أنه في وسط دائرة راهبات عجيبات مبرقعات الوجوه يصرخن به وهن يرفعن الصلبان:

«تراجع يا ابليس!».

وصل كايتانو إلى نهاية قواه. وضع تحت تصرف محكمة التفتيش، وتمت إدانته في محاكمة في ساحة عامة وجهت إليه شبهات الهرطقة وإثارة اضطرابات شعبية وتناقضات داخل الكنيسة. وبمكرمة خاصة، نفذ الحكم عليه بالعمل ممرضاً في مستشفى محبة الرب، حيث عاش سنوات طويلة على اتصال بالمرضى، وكان يأكل وينام معهم على الأرض، ويستحم في المعالف التي يحممهم فيها، وبمياه مستخدمة، ولكنه لم يتوصل إلى تحقيق أمنيته المعلنة بالإصابة بعدوى الجذام.

انتظرته سيبرفا ماريا دون طائل. وبعد ثلاثة أيام توقفت عن تناول الطعام في انفجار غضب عزز دلائل إصابتها بمس شيطاني. تشوش المطران لسقوط كايتانو، ولغز موت الأب اكينو، والضجة العامة حول محنة أفلتت من حكمته وسلطته، فتولى بنفسه عمليات التعزيم بنشاط لايمكن تصوره في مثل حالته وسنه. واجهته سيبرفا ماريا هذه المرة، برأسها الحليق بالموسى والقميص الجبري، بقسوة شيطانية، فكانت تتكلم بلغات أو أصوات طيور جهنمية. في اليوم التالي حدثت ضجة هائلة من حيوانات هائجة، فاهتزت الأرض، ولم يكن ممكناً التفكير بأن سيبرفا ماريا ليست تحت رحمة جميع شياطين الجحيم. وعند إعادتها إلى الزنزانة وضعوا لها حقنة شرجية من ماء مقدس، وكان ذلك هو الأسلوب الفرنسي لطرد الشياطين التي يمكن أن تكون قد بقيت داخلها.

استمرت عملية المضايقة ثلاثة أيام أخرى. ومع أنها لم تكن قد أكلت شيئاً طوال أسبوع، فقد تمكنت سيبرفا ماريا من تخليص إحدى ساقيها من الأحزمة ووجهت ضربة بكعب قدمها إلى أسفل بطن المطران أوقعته أرضاً. عندئذ فقط انتبهوا إلى أنها تمكنت من إفلات قدمها لأن جسدها صار هزيلاً إلى حد لايمكن معه للأحزمة أن تثبته. جعلتهم الفضيحة يرون أنه من الأفضل وقف عمليات التعزيم، وكان هذا ماقدره المجمع الكنسي، ولكن المطران عارض ذلك.

لم تعرف سيبرفا ماريا مطلقاً ما الذي جرى لكايتانو ديلاورا، لأنه لم يعد بسلته الممتلئة بحلوى البوابات ولياليه التي لاترتوي. وفي التاسع والعشرين من أيار، حين لم تعد لديها أنفاس لتحمل المزيد، عادت

تحلم بالنافذة المطلة على حقل مكسو بالثلج، حيث لم يكن هناك وجود لكايتانو ديلاورا، ولن يكون له وجود مطلقاً. وكان في حضنها عنقود عنب ذهبي تعود حباته للظهور كلما أكلت منها. ولكنها لم تكن تنتزعها حبة حبة في هذه المرة، وإنما حبتين حبتين، وكانت لاتكاد تتنفس لأنها تريد أن تسبق تجدد العنقود حتى آخر حبة. الحارسة التي دخلت لتُعدّها من أجل جلسة التعزيم السادسة وجدتها ميتة حباً في السرير بعينين مشرقتين وبشرة طفلة حديثة الولادة. وكانت خصل الشعر تبرز على جمجمتها الحليقة مثل فقاعات، وتظهر للعين وهي تنمو.

هذا الكتاب

في المحراب الثالث للمذبح الكبير، وإلى جهة الانجيل، هناك بالذات كان الخبر. لقد تطايرت اللوحة فتاتاً مع ضربة المعول الأولى، وانفلتت خارج القبر غديرة شعر حي له لون النحاس المركّز. أراد معلم الورشة أن يسحب ذلك الشعر كاملاً بمساعدة عماله، فكان كلما سحبوه يبدو أكثر طولاً وغزارة، إلى أن خرجت آخر فتائله وهي ماتزال عالقة بجمجمة طفلة. لم يبق في القبر سوى بضع عظام صغيرة ومتفرقة، وعلى اللوحة الحجرية المتآكلة بفعل ملح البارود لم يكن مقروءاً سوى اسم بلا كنية: سييرفا ماريا دي تودوس لوس انخيلس، بعد مدِّ ذلك الشعر الرائع على الأرض؛ تبين أن طوله اثنين وعشرين متراً وأحد عشر سنتمتراً.



دار جفرا للدراسات والنشر